

# مجموعتنا الخاصة

مجموعتنا  
الخاصة

الكتاب	سراييب الذاكرة
الكاتب	شرف الدين عكري
تاريخ النشر	الطبعة الثانية 2025
رقم الإيداع	2023/1524
التقييم الدولي	1861648731
التصميم	بكري خضر

الناشر  
دار المصورات  
للنشر والطباعة والتوزيع



الخرطوم غرب  
شارع الشريف الهندي  
المتفرع من شارع الحرية  
ت: +249912294714  
elrayah1995@gmail.com

المدير المسؤول:  
أسامة عوض الريح

### حقوق النشر محفوظة للمؤلف ©

لايسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه كنسخة إلكترونية أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من المؤلف.

دار المصورات للنشر والطباعة والتوزيع  
الآراء والأفكار الواردة في هذا الكتاب عن وجهة نظر المؤلف ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار.

شرف الدين عكري

# حبر الحبيب الخبيرة

رواية



إهداء:

إلى أمّي..

وأبي..

وابني زياد..



## قبل البدء:

أسماء الشخصيات غير حقيقية، وإذا حدث أي تشابه فهو من قبيل المصادفة فقط.



## الفصل الأول





- كدنا نصل.

هتف زوج أختي عبد المجيد، وقد تراقصت عيناه في كل اتجاه  
تستقي معالم المكان بدقة. رنوت إليه بنظرات جامدة، ثم إلى  
أختي، ومن بعدها أمي.

كنت جالسةً في حضنها، ملتصقة بها أشد ما يكون الالتصاق، ولم  
يفلح تأرجح الشاحنة المتهالكة، تحت وقع الطريق المتعرج في أن  
يبعدني أو يزعجني عنها.

ركزت على العيون أسأل النظرات ماذا تقول؟

إنها لا تعكس سوى الشرود القائم الذي يكتم الأنفاس ويخنقها  
بجبروت وتعال!

إنها لا تنطق إلاً بالغبن الطاف، وبالمرارة الجائفة كالصخرة الحدباء  
فوق الصدور!

صمت زوج أختي، بعدما تيقن أن جميع لغات العالم عاجزة عن إخراجنا من هول ما نحن فيه من قتامة وضياح، وليس فقط الكلمتان اللتان نطق بهما، فعاد أزيز المحرك ليطفو على السطح.

كانت أختي زائدة تجلس قبالتنا، فوق صرة من الثياب، وقد ضمت إليها ركبتيها، وطأطأت رأسها بتحلق في الفراغ.

لم أعتد رؤيتها وهي تضع الحايك فوق ضفيريته المرسلتين على ظهرها في استسلام تام. كانت حديثة الزواج، حديثة العهد بالحايك، على عكس أمي التي اعتدت رؤيتها به.

في كل مرة كنت أنتبه فيها للحايك فوق رأس أختي زائدة كنت أشعر وكأن شيئاً ما ليس على ما يرام، ليس كما ينبغي له أن يكون! كانت صغيرة جداً على الزواج، وعلى الدخول في معترك الحياة بتلك الفجائية التي لا تمنح حتى فرصة التقاط الأنفاس.

كان يوماً كسائر الأيام، وكعادتي رافقتها إلى فرّان الحومة، ووصايا أمي تتكرر على مسامعنا وتقاطر تباعاً:

- لا تتأخرا! عودا بسرعة!

لم تكن أختي زائدة، ولا أنا معها، نعلم بأن ذلك اليوم هو آخر يوم تقوم به برحلتها تلك، من الدار إلى فرن عمي إبراهيم، ومن

فرن عمي إبراهيم إلى الدار.

سرنا برشاقة وجذلنا المعتاد كلما طلقنا الدار صوب وجهة ما، والتي غالباً ما تكون في إثر إحدى جاراتنا، أو لقضاء غرض على عجل، حتى إذا بلغنا نصف الطريق التقينا باقي صديقاتنا وانهمكنا في الحديث والمرح. ولما كانت مهمة أخذ وجلب الخبز منوطة بنا، نحن البنات دون الأولاد، فقد كان فيء شجرة الزيتون الوحيدة التي تلتصق بجدار مبنى الفرن، ملاذاً جماعياً نحتمي به في انتظار نداء عمي إبراهيم كلما جهز خبز إحدانا.

وغالباً ما كانت تنشب بيننا مناوشات، تبدأ بالغيرة من حذاء جديد أو فستان أو أي شيء من شأنه لفت الانتباه، وتمر عبر اشتباكات بالأيدي والسب والشتم، وتنتهي بالصلح في آخر المطاف! وقيمة الأخت في هذه اللحظات لا يعلى عليها، ولا تضاهى.

- زائدة.. فطومة!!

سمعنا نداء عمي إبراهيم، فسارعنا انلطي باتجاهه. منحته ثمن طهي الخبز، وانهمكت زائدة في لفها بالمنديل، وحملها فوق رأسها. وفور ابتعادنا نسبياً عن الفرن سألتُ أختي زائدة بنبرة من فاته أن يلحظ أمراً هاماً:

- أين يقطن عمي إبراهيم؟
- في القرن!
- في القرن! كررت جوابها باستغراب.
- نعم هو مكان عمله وسكناه.

توقفت زائدة برهة ثم زادت:

- منذ زمن طويل، قبل حتى ولادتي، وهو على الحال الذي تعرفينه عليه. يستيقظ مع طلائع الفجر، يجهز الخبز التي يبيعها طوال اليوم، ثم يبدأ في استقبال تلك الخاصة بأهالي البلدة لطهيها.
- أليس له أسرة؟
- بلى.. يعيش لوحده.
- !
- سمعت من إحدى البنات ذات مرّة بأنه فرّ من قريته نظير جرم اقترفه! وسمعت من أخرى بأنه ترك أرض قريته لأنه حُرّم من الزواج من الفتاة التي كان يحب!
- ومن أي قرية هو؟
- لكنته الجبلية تدل على أنه من الشمال! لكن الله وحده يعلم من أي بلاد هو تحديداً.

- عجيب!
- إن القصص بشأنه عديدة ومتضاربة لكنه ما انفك محافظاً على أمرين هامّين ممّكاه من قضاء كل هذه المدة دون أن يعرف أحد سرّه.
- ما هما؟
- الابتسامة في وجه كل ما يروج حوله والصمت. لا يؤكّد ولا يفنّد.
- الابتسامة والصمت؟
- نعم يا أختي سلاحان فتا كان لمن استطاع توظيفهما بشكل جيد، وتجنب العجلة لقطف ثمارهما. هذا ما سمعت، لا أذكر من قاله على وجه التحديد، لكنني سمعته ووعيته جيداً.
- وهل وحدته ثمرة!
- ربما!
- شخصياً لا أريد أن أصير إلى مثل سنه لوحدي.
- لسنا نحن من نقرر هذا.
- ...
- لكن لا تخشي شيئاً ستعيشين بحول الله لتصبحين جدّة طيبة القلب، كثيرة الأبناء والأحفاد.

أعدت إليّ كلمات زائدة الأخيرة الطمأنينة التي نزعها قولها لسنا نحن من نقرر هذا، وبينما كنت أهم بأن أسألها المزيد عن حياة صاحب القرن تنأى إلى مسمعي وقع أقدام!

استدرتُ وفي نيتي أنها إحدى البنات تلحق بنا، بيد أنني لمحت شخصاً غريباً!

لكرتُ زائدة بأعصاب متشنجة، وهمستُ لها بصوت خفيض:

- هناك رجل غريب يسير باتجاهنا!

انثتُ إليّ زائدة بعينين جاحظتين وقد اصطبغ وجهها بفحم الفزع، وقالت:

- ماذا!

- قلت لك...

ودون أن أتمكن من تكرار قولي على مسامع أختي زائدة، صاحت بي بانقباض:

- تحقّقي منه جيداً من يكون؟

استدرتُ بنصف جسدي الأيمن كاملاً، وررّرتُ بصري عليه هذه المرة بنظرات فاحصة من الرأس بلوغاً إلى القدمين.

- إنه شخص غريب. قلتُ بصوت مشرب بالانفعال.

- دعينا نغير مسارنا استزادة من التيقن، وبعدها نرى ما يتوجب القيام به.
- ليكن ذلك.
- قلتُ موافقة رأيي زائدة، فانعطفنا يساراً عبر زقاق لا يدخله إلاّ من كانت له حاجة هناك في الغالب.
- والآن؟ سألتني زائدة بعصبية جلية.
- إنّه في إثرنا يا أختي!
- هل نهرب الآن؟
- قالتُ زائدة وهي تلتفت خلفها لأول مرة، وتُحکم قبضتها على اللوح الخشبي الذي يحمل الخبز، بعدما غيرت مكانه من فوق رأسها إلى تحت إبطها الأيمن.
- دعيني أنزع فردي نعلي أولاً. أجبتُها بتسليم.
- 3..2..1. همرتُ زائدة بصوت مخنوق.
- التالي عويشة. صرختُ بأعلى صوتي، وأطلقنا أرجلنا للريح.
- كانت وصية أُمّي في هذا الباب واضحة لا غبار عليها، لا اقتراب من الغرباء، ولا تبادل لإشارة أو نظرة أو كلمة معهم، فالغريب خطر ماحق، والوسيلة الأنسب لتجنبه هي الفرار والصراخ.

بلغنا باب الدار ونحن نلهث ككلبتين شاردين.

- ماذا هناك؟ صاحت بنا أمي وهي تستقبلنا بفرع  
عظيم.

- غ.. غ! نطقتُ بصوت متقطع، بينما قطبتُ أمي  
حاجبها هلعاً.

- غ.. غريب. قالتُ زائدة وهي تضع لوح الخبز  
وتتهالك على الأرضية من شدة التعب.

- شخص غريب يلحق بنا! هتفتُ مخلصاً أمي من  
ضياعها.

- أين هو؟ نطقتُ أمي وهي تحاول الخروج لمعاينة  
الطريق المؤدي إلى دارنا.

لحقتُ بها متقطعة الأنفاس، كان خالياً أو يكاد إلا من عربة  
يجرها حمار سائرة باتجاه وسط البلدة.

استطاعتُ الجلبة التي أحدثها رجوعنا على هذه الشاكلة المستيرية  
أن توقظ أبي من استراحة ما قبل وجبة الغداء.

- ماذا هناك؟ همري سأل أمي وهو يعتمر شاشيته.

- شخص غريب كان يلاحق البنيتين عند عودتهما من  
الفرن.

حدجني وزائدة بنظرات فاحصة، ثم ندهني قائلاً:

- تعاليّ معي!  
أخفضتُ رأسي ومشيت في ظله. وما أوشكتا على  
الابتعاد عن الدار بوضع خطوات حتى ظهر الرجل الغريب  
وكأنه بُعثَ من العدم!
- إنه هو.. هذا من كان يلاحقنا! صرخت بأعلى  
صوتي خوفاً من أن يختفي مجدداً!
- رماني أبي بنظرة مفادها اصمتي، فأطرقت على مضض. بينما  
واصل الرجل الغريب تقدمه، غير مبال برّدة فعلي، أو حضور  
والدي. سار باتجاهنا واثق الخطوات حتى إذا دنا منا ألقى التحية  
باسماً:
- السلام عليكم ورحمة الله..  
فهمّ بعدها أن يلثم يد أبي!
- وعليكم السلام ورحمة الله.. أستغفر الله العظيم.  
غمغم والدي وهو يحاول تخليص يده من سطوة  
تقدير الغريب له.
- في الحقيقة يا عمي.. في الحقيقة... أنا. صاح  
الغريب بارتباك انجلي معه ما بدا منه من وثوق  
وعزم أوليين!
- عودي إلى البيت! أمرني أبي، مزيجاً عن

الشاب عبء الحديث أمامي.

فعدتُ إلى الدار بخطى متثاقلة، ورغم محاولة أُمي وزايدة استنطائي  
إلاّ أنني لم أكن أعلم أكثر مما قلتُ لهما، وهو للأسف الشديد لم  
يشفِ غليل الفضول الذي تفجّر بدواخلنا.

واصل أبي والغريب حديثهما لبرهة من الزمن، وشاهدناهما من  
خلف ستار النافذة يتصافحان من جديد، الغريب انحنى كرتة ثانية  
لتقبيل يد أبي، والأخير منحها له بسخاء والابتسامة تملو وجهه.

- جهزوا العشاء هذه الليلة، سيحل عندنا ضيوف.

صاح أبي، وانفتل إلى غرفته ينتظر وصول الطعام  
إليه.

أبي والقدر وجهان لعملة واحدة، إنه يشبهه إلى حد بعيد، فلا  
أحد يستطيع أن يقرأ ما كتب في لوح القدر، وما عليك سوى  
الانتظار لمعرفة ذلك، كذلك أبي لا أحد منا، في جميع الأحوال  
كان يجرو أن يعلم منه ما يدور في خلد، بمن فيهم أُمي!

- هذا فأل الزواج!

قالت أُمي وهي ترمق أختي زايدة بعطف وحنو، قبل أن تردف  
قائلة بصوت بكّي:

- يا رب لا تخيب ظني!

وتحولت ببصرها إلى الأعلى، وواصلت تهمسُ ويدها مبسوطتان  
تحت رحمة السماء.  
أشحتُ ببصري ناحية زائدة، كانت المخلوقة متجمدة الأطراف،  
متحجرة النظرات، عاجزة عن الكلام.  
وبعيدَ آذان صلاة المغرب بقليل كانت الدار في أبهى حللها  
تستقبل ضيوفها.  
كانوا أربعة، رجلان وامرأة، يصحبهم طفل رضيع. كان الرجل  
الأول هو الشخص الغريب، أما الرجل الثاني فحضر برفقة زوجته  
وابنهما.

- تفضّلوا.. تفضّلوا.. مرحبا بكم.. البيت بيتكم. هتف  
أبي مرحباً.

- بارك الله فيك عمي علاّل. ردّ الغريب بغبطة، قبل  
أن يضيف:

- هذا الشاف عمر. زميلي في العمل.

- مرحبا.. مرحبا.. زارتنا البركة.. مرحبا. زاد أبي  
من حدة ترحيبه.

بينما بقيتُ زوجة الشاف عمر تتأبط وليدها عند عتبة الدار. كنتُ  
أعلم دوري جيداً، وأتظر فقط أن تهدأ الجلبة وينسحب موكب  
الرجال إلى الداخل. ولما ظهرتُ أمامها، أعتقد أنّني ظهرتُ في

الوقت المناسب، ابتسمت ابتسامة مشرقة، وانحنت تقبلي ورائحة الخزامى تفوح من شعرها المصفور تحت الحايك. ارتقيت بدوري على أصابع قديمي أعانقها بجمرة ومودة، فطبت بعد ذلك قبلة على جبين الصغير، وصحت بها:

- اتبعيني.. من هنا!

لم يمنع ضوء الغرفة الخافت من إبراز جمالها، كان السواك يزين شفيتها الرقيقتين بلون غامق فاتن، والكحل يحيط بعينيها الواسعتين، فتبدوان وكأنهما قطعنا جمر تطفوان في بياض الثلج تارة، وفي دموس الليل تارة أخرى. رحبت بها أمي بحفاوة صادقة، بينما اكتفت زائدة بما يفرضه شبيه ذلك الموقف فقط.

أخذت عنها أمي الرضيع وهي تبسمل وتقبله قبلات متلاحقة، فوضعتة قريباً منا، وأمرتني بعينيها أن ألزمه وألاعبه حتى يتسنى لها محادثة السيدة في جو أفضل.

ومن زوجة الشاف عمر علمنا بأن الرجل الغريب اسمه عبد المجيد، وأنهم هنا لخطبة أختي زائدة وطلب يدها على سنة الله ورسوله. أثنت كثيراً على عبد المجيد وخصاله الحميدة، وأوضحت أن بعد بيت والديه هو ما منعه من إحصارهما، وكأنها تعمّدت ذلك حتى لا تترك مجالاً لأيّ لبس في الأذهان، وأنهما سيكونان على رأس الموكب في المرة القادمة.

كانت زوجة الشاف عمر تجيب على كل الأسئلة التي من المحتمل أن تنبثق في نفوسنا، أخبرتنا أن الشاف عبد المجيد يعمل في فيرمة جيكلو كمحاسب، وهو بنفس مرتبة زوجها عمر، وبأنه رأى زائدة في القرن من قبل، وأنه لما قرّر اللّحاق بنا اليوم لم يكن في نيته أبداً ما آل إليه الوضع، بل ما كان يوّدّه هو معرفة الدار فقط...

- السلام عليكم ورحمة الله.. هل هذه فيرمة

اعلالو جزاك الله خيراً؟

أخرجني صوت زوج أختي ممّا كنتُ فيه، يستفسر الرجل الوحيد الذي صادفناه في طريقنا منذ انطلقت بنا الشاحنة. أشار الرجل بيده أن واصلوا تقدمكم دون أن ينبس بنت شفة، فعاد للكز حماره، ومواصلة مشواره هو الآخر في الاتجاه المعاكس!

- حتّى العباد هنا ليسوا كالعباد!

علّقت أمي بامتعاض شديد وأسف حارق.

طيلة أسبوع كامل شنت أمي غارة من الجلسات الثنائية بيني وبينها، ساعية بذلك إلى جعلني أقنع بفكرة الزواج التي انبثقت من العدم لتفرض سطوتها عليّ أمراً واقعاً. أضفت الكثير والكثير لما أخبرتنا به السيدة زوجة الشاف عمر في تلك الليلة، فاستطاعت خلق قصة بتفاصيل مغيرة تماماً للأولى، حتى كادت تصور العريس الواقف عند عتبة الدار على هيئة فارس مقدم من أنبل الفرسان وأشجعهم! لقد كنتُ على وعي تامّ بأنها تحرص فقط، أشدّ ما يكون الحرص، على تنزيل إرادة والدي المطلقة.

يكفي أنه اقتنع بالرجل!

لكن..

لكن مشكلتي لم تكن هذه.

نعم.. ليست هي لأنني في نهاية المطاف كنت مقتنعة بأننا لا نختار  
أقدارنا، مع عدم إنكارني بأن الموضوع قد باغتني على حين غرة!  
استفسرتني فطومة ليلتها، ونحن في فراش النوم، هل هذا ما كنت  
قد قصدته ظهراً بأننا لا نختار أقدارنا؟

كانت المسكينة أصغر من أن تدرك بأننا نعدّ لهكذا يوم، وأنا أقصد  
إعداداً دون آخر، وبأنّ ما ستنخرط فيه أمي، بدءاً من يوم غد،  
هو محاولة جعل الأمر يبدو وكأنّني سأختار قدرتي بحض إرادتي،  
جعلني أظن بأنني أريد الزواج لأنني أفضل طالب يدي عن دون  
ما سواه!

لكن..

لكن مشكلتي لم تكن هذه.

كنتُ مشغولة البال، مأخوذة الفكر بجسدي! نعم بجسدي ولا  
شيء غيره! لقد اقشعرّ بدني لما سمعت أمي، بادئ الأمر، تقول  
(هذا فالّ الزواج). أمّا ذهني فغاص مباشرة يسترجع اللحظات  
الأولى التي صرتُ فيها امرأة (كما قالت فطومة).

آه كم هو شاقّ عليّ قول هذا! ومع ذلك سأقوله عليّ أشفى منه  
أخيراً!

كنت بمعية صُحبياتي نعانق حبيبات مطر الخريف، ونصدق بأعلى  
حناجرنا:

أ شتاتاتاتاتا

أ وليدات الحرائة

أ المعلم بوزكري

طيبلي خبزي بكري

...

أ شتاتاتاتاتا

أ وليدات الحرائة

أ المعلم بوزكري

طيبلي خبزي بكري

...

أ شتاتاتاتاتا

أ وليدات الحرائة

أ المعلم بوزكري

## طيبلي خبزي بكري

...

حتى داهمني نزول دم مني!

أحسستُ به دافئاً يسيل على نخذي. لم يكن بالكمية المتدفقة بقوة، لكن شعوري به كان كافياً ليشلني ويوقف حركتي نهائياً. وما هي إلا ثوانٍ معدودات تُتصرَّم حتى ضعتُ وسط الهتاف، فأضحى الصوت يصلني ضعيفاً:

أ شتا تا تا تا

أ وليدات الحراثة

أ المعلم بوزكري

طيبلي خبزي بكري

...

استعدتُ النَّزْرَ القليل من إدراكي الواقع تحت هول الصدمة، فدسستُ يدي المرتجفة، وقد ملك الخوف كيانِي، أسفل بطني. عندها كان الصوت قد طفق يبلغني متقطعاً:

أ شتا

تا

تا

تا تا

أ ولىدات

الحرائة

أ المعلم

بوزكرى

طىبلى

خبزى

بكرى

...

أ شتا

...

تا

•••

تا

•••

تا تا

•••

أخرجتُ يدي، وكانت قد صارت بيرودة قطعة جليد وبلون أصفر  
ممتقع، وعليها لطفة دم قاتم اللون!

تداعى كل شيء لحظتها!

اصطكّت أسناني ببعضها!

تسارع نبض قلبي!

انقبض صدري!

تقلّصت عضلات معدتي بعنف!

توقّف الزمن!

توقّف الزمن!

توقّف الزمن!

وسقطتُ على وجهي خائرة القوى!

...

استيقظتُ على وجه أمِّي والابتسامة تعلوه!

ابتسامة كانت كفيّلة بأن تزيد من حيرتي، وتضاعف من متاعبي!

- بسم الله.. ما شاء الله.. بسم الله.. ما شاء الله..

بسم الله.. ما شاء الله.. بسم الله.. ما شاء الله..

كانت أمي تخاطبني وهي تمرّ راحة كفّها الأيمن على جبيني،  
وتتطلع إليّ بنظرات حانية، ودودة، مُفتتنة.

- ماذا حصل لي؟ سألتها بصوت بكّي وارتباك

ووجل.

- لا شيء يدعو إلى القلق.

كانت كلماتها فاقدة للمعنى بالنسبة لي! أمّا الأسئلة فكانت تزدهم  
في رأسي ازدهاما، وتتناسل بشكل مفرط يفقدني القدرة على  
السيطرة عليها!

- ما مصدر الدم؟ وهل توقّف؟ وهل أنا مريضة؟

وما الذي يجب عليّ أن أفعله الآن؟

انفجرتُ في وجهها كما لم أفعل من قبل! وما كان منها إلا أن  
فهقمت بارتياح كبير! قبل أن تردّ عليّ قائلة:

- سأحضّر لك مشروباً دافئاً يهدّئ من روعك  
ويساعدك أن ترتاحي، وبعدها نحكي.

وبانسحابها إلى المطبخ، وجدت أختي فطومة الفرصة سانحة للمشول  
بين يدي، فولجت بحذر.

- لقد صرّت امرأة. هذا ما سمعته من النسوة اللاتي  
جنّ يباركن لأمناء.

قالت فطومة ذلك دفعة واحدة، فغادرت الغرفة كما دلفت إليها على  
رؤوس أقدامها، دون أن تدرك بأنها أبجّت نيران تيّهي حدّ شعوري  
بالاختناق!

لقد نقت عليها، وهي التي خيّبت ظنيّ بها، فأخبارها الناقصة  
المشوهة جعلتني أحسّ وكأنها إلى صفّ الجميع ضدي. أما جسدي  
فأدركت لوهلة أنه عدوّي الأول!

إنّ القاسم المشترك بين ما ارتدّ إلى دواخلي، وما عانيته على وجه  
التدقيق وكابدته، إبّان بلوغي، ولحظة سمعت أمي تقول (هذا فالّ  
الزواج) هو الفجائية، تلك الفجائية التي تردّ كرهاً ومقتاً شديداً

للجسد الذي تسبّب فيها!

مشكلتي كانت هي جسدي بكل التفاصيل النازعة للراحة، المسببة  
لقلق مستمر ممتد في الزمان، كان يصحبي في نومي أيضاً، إذ لم  
أكن أستيقظ إلاّ مفزوعة على وقع كابوس كالح.

كابوس كنت أطلع فيه حفرة عميقة بلا قرار، تارة يشع منها بريق  
نور أبيض، وتارة أخرى ينجلي النور وينبعث من تجاويها ما يشبه  
الصرخة المكتومة!

أخبرتُ أمي بما أراه في منامي، ففسّرتَه لي على الفور قائلة:

- النور الأبيض هو رضاي الذي تسبحين في مائه  
الرقراق. والحفرة العميقة هي عين الحسود دفع الله  
عنا شرّه.

صمتت قليلاً، ثم استتلت:

- لا بد من وضع حرز يدراً السّوء عنك يا ابنتي. سأزور  
نعيمة القوّاية وأجلب لك من عندها ما يلزم.

...

كانت أمي تأتي على ذكر الزواج متجاهلة ما أفهمه من هذه

الكلمة، وما تعنيه لي في جوهرها.

ما هو الزواج؟ سألت نفسي.

فوجدتني في المجلد أحصي إجابات سطحية من قبيل إنجاب  
الأطفال ورعايتهم...

كيف يتم إنجاب الأطفال؟

بنوم الرجل مع زوجته.

وكيف ينام الرجل مع زوجته؟

كلّ ما كنت أتوصل إليه كان مرتبطاً بالكلام الساقط الذي تكلمنا  
تتناز به بيننا نحن البنات أثناء لعبنا، أو بيننا وبين الأولاد عند  
تطاولهم على عوالمننا. لكنّه كان أبعد ما يكون عن تحديد ما أنا  
مقبلة عليه بدقة.

في اليوم السابع الذي أعقب مجيء الضيوف، وبجراحة، لا أعلم حتى  
اللحظة من أين جاءتني، سألت أمي، قاطعة حديثها الذي كنت قد  
مللته حدّ الضيق. حديث كان في كُليته جانبياً لا يلامس جوهر  
ما أعانيه، وما أنتظره منها أن تفسّره.

- ما الذي يتوجب عليّ فعله في ليلة الزواج الأولى؟

سألتهآ. تجرأت عليها. نعم.. لقد فعلت ذلك، وقد كنت أنوي أن أبدأ بالليلة الأولى، قبل أن أنتقل إلى ما يعقبها، لكنها قطعت كل السبل قائلة:

- زائدة! الزوج يعلم ما يتوجب فعله. هذا ليس من شأنك.
- أقبل الزواج إذن.

هل وافقت فقط كردة فعل على إجابتها المخيبة، الإجابة التي أحمّنتي وجعلتني أدنو من أي شيء، أي شيء غير الإنسان؟ أم تراني وافقت لأنني كنت أودّ أن أقطع حديثها وإصرارها المضني؟

أم وافقت لأنني كنت أريد أن أرى ما الذي سيحدث؟ أم لدافع آخر؟ في الحقيقة لا أعلم.

لكن السؤال الذي أعود وأطرحه الآن، بعد كل تلك السنوات المديدة: ما قيمة قبولي من عدمها؟ هل كان رفضي مثلا سيغير قدري؟ أم أن قدري كان قد حسم لحظة موافقة والدي؟

تزوجتُ بعد المجيد..

وانتقلنا من ليلتنا الأولى إلى فيرمة جيكلو.

كانت هذه الأخيرة تبعد عن بيت والداي بثلاث ساعات تقريباً سيراً على الأقدام، أي أنها لم تكن بعيدة، لكنها مسافة كانت كافية لأشعر بلوعة فراق حياتي السابقة. وكانت لفيرمة جيكلو ميزة جيدة، فإلى جانب قربها من سكني والداي، فقد كانت متاخمة لدوّار النيمرو، محاطة بسور ممتد امتداد البصر، ينتهي بباب حديدية ضخمة، تفتح على وسط الدوار، وتحديداً على منبع مائي يوفر للدوار حاجته من الماء.

كان الدوار يحتضن المزرعة، وكانت المزرعة تحتضن الدوار، كان احتضاننا متبادلاً. فن جهة، كانت المزرعة توفر لأهل الدوار

القليل عددهم، نساء ورجالا، فرص عمل طوال الموسم الفلاحي، والذي كان يتركز على إنتاج القمح والشعير والبقول والزيتون. ومن جهة ثانية، كان الدوار يوفر للمزرعة حاجتها من العمال المجدين على الدوام.

وقد ساعد وجود نساء العمال بجانبني في تقبلي لتفاصيل الحياة الجديدة. وقد كنّ من الطيبة واللطف إلى درجة أنهنّ كنّ يطلبن من عبد المجيد أحيانا أخذني معهن لقضاء بعض الوقت في الحديث، وصنع الكعك، وأشياء كثيرة أخرى...

ومنهنّ تعلّمت أبجديات حياكة الصوف لصنع الملابس، وهو ما ساعدني على تجاوز عقبات الحياة اللاحقة التي كانت بانتظاري!

كان يقوم عند مدخل المزرعة مستودع ضخم للتخزين، يُملأ في فصل الصيف، ويُفرغ من محتواه مع حلول الخريف، ليظل شاغراً طوال ما تبقى من العام. وعلى مبعده نحسين متر تقريبا كان يقوم منزلان متقابلان وجها لوجه، تفصل بينهما بضعة أمتار، واحد لنا، وواحد للشاف عمر وأمه وزوجته أمينة وابنها.

أمينة التي سرعان ما ظهرت بوجه مخالف لذلك الذي جاءتنا به أول مرّة!

في بداءة الأمر، اعتبرت ما كان يصدر عنها مجرد أوهام وتبهؤات

انبثقت في دواخلي بسبب تحذيرات نساء العمال التي كانت تكاد لا تنقطع:

- احذري من أمينة! احذري من زوجة الشاف عمر!  
إنها أفعى سامّة! انظري فقط إلى معاملتها لخماتها،  
فالمسكينة لا تستحق أن يظل حفيدها يتبول على  
ظهرها دون انقطاع! انظري إلى الشاف عمر، إنه  
مغمض العينين، مكّم الفم!

لقد كنت أعزو كل ذلك إلى سوء معاملتها لهنّ، وإلى القهر  
الذي كانت تسلّطه عليهنّ، بأن تفرض عليهنّ القيام بشؤون  
بيتها، وجعل ذلك من واجبات العمل في المزرعة! ناهيك عن  
السبّ والقذف، الغير مبررين، اللذان كانا يطالهنّ منها!

- لا شأن لنا بها إطلاقاً، هي هكذا منذ عرفتها.  
عاملي نساء العمال بودّ ولطف، وتقبلي  
مساعدهنّ لك من باب كرمهنّ!

هكذا أوصاني عبد المجيد، وهكذا صار.

لم يطل الأمد بأمانة كثيراً قبل أن تعلن عن عدائها لي بشكل  
صریح!

كَمَا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ نَسْتَضِيفُ فِي مَنَزَلِنَا الْمَفْتَشَ الْمَسْؤُولَ عَن مِرَاقِبَةِ سِيرِ الْعَمَلِ فِي جَمِيعِ الْمَزَارِعِ الْوَاقِعَةِ فِي تَرَابِ الْإِقْلِيمِ، أَي أَنَّهُ كَانَ مَسْؤُولًا عَمَّا يَعَادِلُ سِتَّ أَوْ سَبْعَ مَزْرَعَاتٍ.

أَتَى، كَمَا قَالَ لِي عَبْدُ الْمَجِيدِ، لِمَبَارَكَةِ زَوَاجِنَا وَتَفَقُّدِ الْأَحْوَالِ بِشَكْلِ غَيْرِ رَسْمِيٍّ، وَقَدْ صَحَبْتَهُ فِي زِيَارَتِهِ زَوْجَتَهُ أُمَّ الْغَيْثِ.

بَدَأْنَا لَيْلَتَنَا بِالزَّرْغَارِيدِ، وَقَدْ حَضَرَتْ أُمِّي، وَكَانَ ذَلِكَ مَجِيئَهَا الْأَوَّلَ عِنْدِي بِمَعِيَّةِ أُخْتِي فَطُومَةَ، فَاهْتَمَّتْ بِالطَبْخِ وَغَيْرِهِ، فَضِلَّا عَن نِسَاءِ الدَّوَارِ اللَّائِي دَعَوْتَهُنَّ لِلْحَضُورِ أَيْضًا، أَمَا أُمِينَةُ وَحَمَاتُهَا فَبِيتِي كَانَ بَيْتَهُمَا.

- انظري إلى أمينة إنها تغرق في مجلسها! همست إحدى النساء في أذني نكاية منها، قبل أن تهوي بكفها على وسط الدّفّ، وتصيح بصوت هزّ أركان الغرفة الواسعة:

زائدة يا قطيب البنان خليوها تبان..

زائدة يا قطيب البنان خليوها تبان..

زائدة يا قطيب البنان خليوها تبان...

ثمّ أضافت أخرى:

عروستنا يا الوردة عليك يطيح الندي..

عروستنا يا الوردة عليك يطيح الندي..

عروستنا يا الوردة عليك يطيح الندي...

فزادت ثالثة:

عروستنا يا الفنيدة تستاهلي طومويل جديدة..

عروستنا يا الفنيدة تستاهلي طومويل جديدة..

عروستنا يا الفنيدة تستاهلي طومويل جديدة...

مأخوذة بسحر الأجواء سرحتُ بذهني قليلاً إلى الوراء أستعيد  
تفاصيل زواجي، كما لم أفعل طيلة الشهرين السابقين!

بعد موافقتي على الزواج من عبد المجيد، خرجتُ أمي رأساً من  
الغرفة تزغرد، وتذرف الدموع فرحا وانشراحا. أسكتها والدي  
بنبرة حادة:

- ماذا يجري؟

- زائدة.. زائدة وافقت على الزواج.

كنت قد انتصبت خلف الستار المسدل على طول باب الغرفة  
الواطئة. كان ثوب الستار يسمح لي برؤيتهما، دون أن يتيح لهما

الإمكانية عينها.

طأطأ والدي رأسه، وقفل عائداً إلى غرفته، وهو يدمدم:

- سأبلغ الرجل .. جهزوا حالكم!

وانهمكا في التجهيز. حضرنا صنوفا شتى من الحلويات،  
وقنا بطلاء وتزيين الدار، وتصبين بعض الأفرشة...

وتزامنا مع يوم السوق الأسبوعي استقبلنا ضيوفنا المرتقبين. وعلى  
عكس المرة الأولى، فقد ضمّ الموكب، زيادة عن عبد المجيد  
والشّاف عمر وزوجته وابنه، كلاً من أم الشاف عمر وأم عبد  
المجيد وأبيه وأخته وواحد من أصدقائه مع زوجته.

حضر أهل العريس، فأحضروا مهم السكر والحناء والفواكه الجافة  
وملابس لي وخروفا وهدايا أخرى...

لم يفت والدي أن يدعو لهذه الوليمة المصغرة، جارنا وصديق عمره  
الحاج قدّور، وفتية المسجد. كما لم نثوان أُمي في دعوة جارتنا هنية  
لمساعدتها والوقوف بجانبها. وكانت الوليمة المقدمة للضيوف عبارة  
عن دجاج محمر، ولحم مبخر، وكسكس، وحلويات، ومملحات  
مع الشاي.

كان الرجال في غرفة، وكنا نحن النساء في غرفة أخرى، وكانت

فطومة تنتقل بين الغرفتين والمطبخ كما تشاء، دون أن أستفيد من أخبارها العاجلة، لأن الحصار كان مشدداً عليّ من قبل الحاضرات!

كانت أم عبد المجيد لا تتوانى في لمس يداي وشعري، وتفرس ملاحي، وترديد:

- ما شاء الله.. اللهم صل وسلم على نبينا محمد.. ما شاء الله.. ما شاء الله..

أمّا أخته فلم تجد حرجاً في قول:

- أخي عبد المجيد لا يلام! لا أحد يقدر على مقاومة كل هذا البهاء!

في الحقيقة كانت هذه التعليقات تبعث على السرور. وبالرغم من أنها كانت تلقي بي في غياهب حرج عظيم، إلا أنها قللت من كرهى لجسدي!

تناولنا طعام الوليمة، وبقينا مشدودات البال، نتطلع إلى ما سيقدره الرجال.

وكذلك صار..

تمّ الاتفاق على المهر، وعلى موعد القران، وموعد العرس ومكانه. فأما المهر فكان ثلاثة آلاف درهم، مع دملجين وسلسلة ذهبية وخاتم. وأما موعد عقد القران وموعد العرس، ففي يوم واحد بعد ثلاثة أسابيع فقط! وأما مكان العرس فدارنا، نظراً لقربها من مكان عمل العريس.

انطلقت ترتيبات الزواج وتجهيزي، على عجل، بخياطة تكشيّطين وقفطانين وجلباين...، في حين شرع عبد المجيد في شراء ما يلزم غرفة النوم، والمنزل بشكل عام.

في اليوم الأول للزفاف، وقد صادف يوم الخميس، ذهبتُ باكراً إلى الحمام الوحيد المتواجد في البلدة مع شلّة من صديقاتي، آخذين معنا الشمع والسكر للمشرفة على الحمام.

ولجنا بالزغاريد والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، والشمع المضاء يزين دخلتنا، والبخور يعطر أنفاسنا. وفي أجواء من ألف ليلة وليلة، حرصتُ صديقاتي كل الحرص على خدمتي، خدمة العمر بسخاء ومحبة وبشر.

تحمّمتُ، قترينتُ، فعدتُ على بساط الرّعاية والاهتمام المنقطع النظير إلى الدار، للتّهيوّ لجلسة الحناء الطويلة.

بعد العصر، أُجِلستُ على أريكة مغطاة بلحاف أبيض مطرز بالطرز الرباطي. وأمامي فردت طاولة مغطاة باللحاف ذاته، وضعت عليها النقاشة ما تحتاجه من أدوات الحناء ولوازمها، بالإضافة إلى الحليب والبيض والسكر والشّموع. وحتى أحصل على راحة تامة فقد مُنحتُ وسائل عديدة مطرزة لأستند عليها.

محاطة بالمدعوات، بنات العائلة وصديقتي وجاراتنا، مرتدية قفطانا أخضر اللون، أنشأت النقاشة تزين يداي أولاً، ثم رجلاي ثانياً، والأغاني تحيط بتلابيبي من كل حذب وصوب:

زايدة يا قطيب البنان خليوها تبان..

زايدة يا قطيب البنان خليوها تبان..

زايدة يا قطيب البنان خليوها تبان...

عروستنا يا الوردة عليك يطيح الندي..

عروستنا يا الوردة عليك يطيح الندي..

عروستنا يا الوردة عليك يطيح الندي...

عروستنا يا الفنيدة تستاهلي طومويل جديدة..

عروستنا يا الفنيدة تستاهلي طومويل جديدة..

عروستنا يا الفئيدة تستاهلي طومويل جديدة...

آه يا العريس ضوي بالشمع البلدي.. إلا جاك الزين ضوي  
بالتريسينتي..

آه يا عبد المجيد ضوي بالشمع البلدي.. إلا جاتك زائدة ضوي  
بالتريسينتي..

آه يا العريس ضوي بالشمع البلدي.. إلا جاك الزين ضوي  
بالتريسينتي..

داها وداها والله ما خلاها..

داتو وداتو والله ما خلاتو..

داها وداها والله ما خلاها..

داتو وداتو والله ما خلاتو..

داها وداها والله ما خلاها..

داتو وداتو والله ما خلاتو..

- خالتي أم الغيث! زوجك في السيارة خارجا  
بانظارك. صاحت أختي فطومة معيدة إلينا إدراكا  
بتصرم الوقت.

- سأعطيكِ عشاءك الآن سيدة أم الغيث، وبعدها  
نتعشى نحن. هتفت أُمي.

- لا داعي لذلك، لقد تناولتُ الحلوى، واستمتعت  
بالتواجد معكن، وفي ذلك خير وبركة.

ردّت السيدة أم الغيث بسعة صدر وبشاشة.

- لن تخرجي من هنا قبل تناول العشاء، وأخذ حصة  
الأبناء أيضاً. قالت أُمي بحسم، وانفتلت إلى المطبخ.  
- هل تعشى الرجال؟ سألت إحدى النساء.

فردّت عليها أخرى ممازحة إياها:

- وذلك لما كنتِ تهزين رديك وكتفيك.  
- مية واحدة تتربص بالجميع. عقبّت الأولى، فتعالت  
في الأجواء الضحكات والقهقهات.

غادرتنا السيدة أم الغيث مع زوجها، فجلسنا إلى مائدتين ننتظر  
وصول الطعام:

- أين أمينة؟

- صحيح! أين أمينة؟

بحشنا عن أمينة بيننا فلم نجدها!

كانت قد انسحبت إلى منزلها في حالة من الكدر والغيض، الله وحده يعلم مداهما! وكانت حجتها في ذلك، أننا تعمّدنا إهانتها بأن تركها لتناول الطعام مع نساء العمّال، في حين كانت قد قدّمت لتناوله مع زوجة المفتش السيدة أم الغيث!

- لم يتقصد أحد إهانتك. لقد كان سوء فهم منك. انتهر الشاف عمر زوجته، قبل أن يضيف :

- عليك بالعودة حالا إلى مكانك حيث كنتِ، فعبد المجيد وزايدة وأما يقفون عند الباب الآن بانتظار عودتك، وقد سمعوا كل ما تلفظ به لسانك السليط.

- لن أعود!

- لا تتمادي في غيِّك!

- قلت لك لن أعود!

- لنرجع إلى المنزل، دعونا لا نزيد الطين بلة. صاح بنا عبد المجيد، فعدنا أدر اجنا.

تعلت الأصوات في منزل الشاف عمر، فجاءت والدته في إثرنا:

- أمينة تترك البيت! ليوقفها أحدكم يا جماعة الخير!

خرجنا تتدافع، وقد انقلب فرح ليلتنا إلى مشاعر سلبية لم نقو معها على تناول لقمة واحدة. كان الشاف عمر يدير محرك السيارة، وكانت أمينة تحمل حقيبتها بيد، وابنها باليد الأخرى، وكانت فطومة منتصبه تعين بفضول طفولي أطوار ما يجري.

- تحركي!

صرخ الشاف عمر بعصبية طاخفة في وجه زوجته.

وضعت أمينة حقيبتها وابنها بداخل السيارة، فتوجهت صوب فطومة، حتى إذا دنت منها صنفعتها صنفعة أسقطتها أرضاً، وهي تقول:

- جئتِ للتشفي يا بنت القحبة! جئتِ للتشفي!

سارعتُ وأمي الخطى باتجاه أختي فطومة، فحملناها فاقدة الوعي، مرتخية الأطراف! بينما ارتمتي البقية على الشاف عمر يخلصون أمينة من قبضته!

ولم يهدأ لنساء العمال بال تلك الليلة حتى عادت أمينة لبيتها، فأمام إصرار الشاف عمر على طردها إلى بيت والديها في ذلك الوقت، تمدد بعضهن أرضاً مانعين السيارة من الحركة ومغادرة

المزرعة!

- سنتحاسب فيما بعد يا أمينة.. سنتحاسب حساباً عسيراً! دمدمتُ وأنا أتقلّب في فراشي.
- لن يكون هناك وقت للحساب يا زائدة، ولا موجب لذلك من الأساس.

كفّ عبد المجيد لحظة، ثم أضاف:

- غداً سنشرع في تجهيز حالنا للانتقال إلى مقر العمل الجديد.
- هل هذا ما جاء من أجله المفتش؟
- نعم.. سننتقل إلى فيرمة اعلالو.

أخيراً توقفت بنا الشاحنة أمام باب حديدي ضخم بفردتين.  
قفز عبد المجيد من مكانه، ونزل يستعلم ما إذا كانت هذه هي  
فيرمة اعلالو. في حين بقينا نحن في أمكنتنا جامدات بلا حراك.  
- السلامُ عليكم!

هتف عبد المجيد بأعلى صوته، وهو يحاول تساق الباب وإلقاء  
نظرة على الداخل.

لم يفلح في مسعاه لأن الباب كان عتياً عليه.

- السلام عليكم!

- حاول أن تطرق الباب بحجر!

صاح به سائق الشاحنة.

- بعد أن نجرب بوق الشاحنة!

- لو كان يعمل لوفرت عليك كل عناء يا أستاذ عبد

المجيد.

رفعتُ عيني إلى السماء، كان قرص الشمس ينحو باتجاه المغيّب.  
انتابني شعور بالقلق، وخشيتُ أن نكون بحاجة إلى قطع مسافة  
إضافية حتى نبلغ غايتنا.

- لا طير يطير هنا يا ربي الحبيب! اللهم لا تجعله  
المكان المنشود!

قالت أمي، وقد طلّقت مكانها وجمودها الذي كانت عليه، ثمّ  
حوّلت بعدها بصرها باتجاهي، فهمّت بأن تقول شيئاً آخر،  
لكنّ أزيز الباب قاطعها، وسلب انتباهنا جميعاً، فتعلّقت  
الأبصار بعتبة الباب.

- ضيف الله؟ قال عبد المجيد مبتسماً.

- مرحبا بضيف الله وبحجره أيضاً!

أجاب الرّجل الكبير في السن الواقف عند الباب، وهو يرمق  
الحجر في يد عبد المجيد بنظرات متواصلة.

- لا تؤاخذنا أرجوك، فبوق الشاحنة معطل، وصوتي لم يف  
بالغرض.

- لا عليك.. ليس المهم لون القط، المهم أن

يصطاد الفأر، وقد اصطاد حجرك الفأر.

- المعطي..! من هناك؟

- ضيف الله.  
 - مرحبا بضيف الله.. مرحبا.  
 بلغ إلى مسامعنا صوت السيدة المتوارية خلف الباب دون أن  
 نراها!

- تفضلوا بالدّخول!  
 قال المعطي وهو يسألنا بطريقة ضمنية غرضنا الفعلي.  
 التقط عبد المجيد الإشارة، فأجابه قائلاً:  
 - في الحقيقة نحن نسأل عن فيرمة اعلالو.  
 - وما حاجتكم فيها؟  
 دسّ عبد المجيد يده في جيب سرواله الأيسر. أخرج ورقة، فناولها  
 للمعطي وهو يقول:

- أنا المحاسب عبد المجيد. كنت أعمل في فيرمة جيكلو،  
 والآن تم تعييني، كما ترى، للعمل في فيرمة اعلالو.  
 - أنت المحاسب الجديد إذن؟  
 - وهل هذه فيرمة اعلالو؟  
 - نعم.. نعم!

أجاب المعطي، فأعاد الورقة لعبد المجيد، وأخذ يترع باب  
 المزرعة على مصراعيه. استدار عبد المجيد ناحيتي، فرماني

بنظرات قال لي من خلالها: فقط اطمئني يا زائدة.. كل شيء  
سيكون على ما يرام.  
وما فتح المعطي الباب حتى ظهرت أمام أعيننا سيدة في مثل سنّ  
أمّي تتأبّط بندقيّة صيد!

- لا تخشوا شيئاً، هي احتياطات بسيطة و فقط .  
تفضلوا! تفضلوا!

قال المعطي، قبل أن يخاطب زوجته:

- طامو هناك نساء في الشاحنة. قومي بما يلزم!

وضعت طامو البندقية بجانب الحائط، فتحرّكت صوبنا. كان عبد المجيد قد فتح باب الشاحنة ووضع لنا كرسيًا للنزول بأمان كما صعدنا إليها.

- هل أعود للمساعدة؟ استفسرت طامو زوجها المعطي .

- سنتعاون نحن الثلاثة على إفراغ محتوى الشاحنة وإدخاله. فقط قومي بما يلزم!

- حاضر! مرحبا بضيف الله.. مرحبا..

•••

حقل من عباد الشمس لا نهاية له!  
كنتُ مفتونة بما أراه، وقد انجلى خوفي من خالتي طامو وبنديقتها.  
- فطومة! اتبعينا! ندهتني أمي، فصرت في إثرهنّ.

كانت خالتي طامو تتقدمنا، وترحب بحماسة:  
- مرحبا.. مرحبا.. مرحبا.. أخيراً صار لدي ثلاث  
جارات!

دنت أمي من خالتي طامو، فهمست في أذنها بكلام كانت لا تريدنا أن نسمعه على الأرجح. لكنني قدّرت أنها صحّحت لها العدد، وأكدت لها حصولها على جارة واحدة وهي زائدة، فجيئي وإياها لم يكن إلاّ من باب تسهيل عملية استقرار زائدة وتكيفها مع الحياة الجديدة. سأعود وأمّي بعد أسبوع، وستظلّ زائدة لوحدها. كان هذا واقع الأمر، وكان عليها تقبّله.

- دعوني أعرفكم على المكان. قالت خالتي طامو، ثم  
استتلت:

- دعونا نستهل جولتنا بالطابق الأول.

كان المسكن، على مبعده من باب المزرعة بحوالي المائة متر، مؤلفاً من طابقين، محاطاً بأربع شجرات من الجهات الأربع. الأولى

شجرة تين باتجاه القبلة، والثانية شجرة خرّوب باتجاه الشمال. والثالثة شجرة أوكلبيتوس باتجاه الغرب. والرابعة نخلة، بجذع طويل دون سعف، تربّع على رأسها عش لقلّاق ضخم.

كان الطابق الأول بباب خشبية كبيرة، بينما كان الوصول إلى الطابق الثاني يتم من خلال صعود أدراج عند طرف الدار الأيمن، المطل على مدخل المزرعة.

فتحت خالتي طامو الباب. أشعلت نور المصباح المعلق فوق رؤوسنا، وصاحت:

- هذا مستودع المزرعة. وكل ما ترونه هنا هو تحت

التصرف، بما في ذلك السيارة والجرّار هناك. وعلي

أن أقول لكم بأنه يعجّ بالفئران والثعابين أيضاً.

اعتراني حرّ وقرّ.

- ثعابين!

وددت في تلك اللحظة أن نعود أدراجنا، وتساءلت في دواخلي:

كيف سأقضي أسبوعاً كاملاً مع الثعابين؟

- لا تخشين شيئاً. المسألة بسيطة وتوقف على الاعتياد.

لم تنفخ أيّ منّا بكلمة. أما طامو فأضافت تقول:

- وهذا البرميل الضخم هنا على يسارك، هو برميل

الوقود. نستعمل وقوده لحرق الثعابين، وتشغيل  
السيارة والجرار وباقي الآليات، وكذلك لتوليد  
الكهرباء. دعوني أريكُم محرك توليد الكهرباء! إنّه  
في الخلف.

وفي طريقنا لرؤيته، واصلت طامو حديثها قائلة:

- برميل الوقود يُملاً باستمرار من البلدة المجاورة. يملأه  
المعطي معتمداً في ذلك الجرار.

إليكنّ المولد إذن! إنّه محور العمل والحياة هنا في  
المزرعة. أما الآن فدعونا نلقي نظرة على كوخ  
حطب المدفئة، والبئر، والزريبة وخمّ الطيور...

فأمّا المولد فكان بحجم غرفة صغيرة، يستند على عجلتين! وأمّا  
الكوخ فكان ممتلئاً أو يكاد بالحطب. وأمّا البئر فكان مغطى  
بقطعة خشبية، مزوّد بمضخة تسحب الماء منه وتفرغه في خزان  
بلاستيكي، يتدلى منه خرطوم يمنح الساقى حاجته من الماء. وأمّا  
الزريبة فكانت تضمّ بداخلها بقرتان وعجلا صغيراً. وأمّا خمّ الطيور  
فكان يعج بالدجاج والبط.

- طامو! كفى حديثاً الآن! إليّ بديكَيْنِ مع السكّين!

عندنا ضيوف يا طامو!

- أجل.. أجل. عندنا ضيوف! حالا! حالا!

- أين أمي؟

استيقظتُ صبيحة اليوم الثالث لوصولنا إلى فيرمة اعلاو على وقع  
اختفاء أمي!

- أين أمي؟

كانت أختي زائدة منكفئة على البكاء!

- أين أمي؟

- أمك عادت لتهم بيتها. وأنت ستبقين مع  
أختك زائدة حتى يفرحها الله بالذرية والمؤنس.

بحلقتُ في الفراغ أحاول جاهدة استيعاب ما قالته لي خالتي طامو!

- ليس الأمر كذلك يا فطومة! أمي ذهبت  
وستعود لاصطحابك...

وقبل أن تنهي أختي زائدة كلامها، فتحتُ الباب وصفقتها من

خلفي بقوة، قبل أن أنزل الأدرج بسرعة، وأختفي باكية في  
حقل عباد الشمس.

واصلت التوّغل عميقاً في الحقل، دون وجهة أبتغيها. كنت أهربُ  
من حتمية ما سمعته أذناي هروب الجبان.

توقفتُ عن الركض لاهثة، كانت أزهار عباد الشمس تحيط بي  
من كل حدب وصوب. نظرتُ خلفي، ولما أيقنت أنني ابتعدتُ  
كفاية واصلتُ توغلي مشياً.

- لن أغفرك يا زائدة. لن أغفر لك

فعلتك يا أمي. لن أغفر لكما إيقاعكما بي.

هكذا نطق لساني بغيض وغبن لا يضارعان.

لقد خدعت! خدعتني أمي وزائدة! لقد تواطأتا ضدي، وكانت  
تلك خديعة العمر!

أما ما حدث بعد ذلك، فقد غفوتُ من شدة التعب والجوع  
والعطش. ولم أبرح مكاني إلاّ على صوت حارس المزرعة عمي  
المعطي:

- فطومة! قومي يا صغيرتي! قومي لقد قلقنا عنك كثيراً!

وقد بحثنا عنك في كل الأرجاء دون طائل! قومي

يا صغيرتي لا ريب أنك جائعة وبحاجة إلى الماء.  
قال عمي المعطي هذا وهو يحتضني، فدّ إليّ بعدها قينة ماء  
وتفاحة.

\*\*\*

مرافقة عمي المعطي أثناء جولته لثني العصافير عن تخريب  
المحاصيل، وكان يعتمد في ذلك على بندقيته!  
اللّعب بالأرجوحة..

اللّعب بالحبل..

لعب الحجّلة..

مطاردة فراخ البط والمجل البري والدجاج..  
الاعتناء بالأبقار وجلب الماء، وأحياناً الكلاً لهم..  
الحفر تحت جذوع الأشجار المحيطة بمسكن المزرعة..  
صناعة العرائس والدمى بالقصب..

انتظار عيد الأضحى للذهاب في عطلة من أسبوعين إلى يتنا..  
ترقب زيارة أُمي لنا على الدوام..

البكاء عند عودتها..

مرافقة زوج أختي عبد المجيد إلى البلدة المجاورة في بعض أيام  
السوق..

الاستلقاء على ظهري ومشاهدة غروب الشمس..  
الغناء..

مطاردة الفراشات..

اقتفاء أثر الطيور وأعشاشها..

رعاية جرو صغير..

التوجّس المستمر من ظهور الثعابين والأفاعي..

الاستمتاع بحضور أبناء وأحفاد عمي المعطي وخالتي طامو في العطلّة  
الصيفية..

البكاء عند فراقهم..

هكذا عشت أيامي في فيرمة اعلالو..

زيادة على التّساؤل باستمرار متى ستلد أختي زائدة لأعود إلى  
أحضان أمي نهائياً..

وقدّر الله أن جاء ذلك اليوم المنتظر، فوضعت أختي زائدة بنتاً  
جميلة أوصانا عمي المعطي أن يكون اسمها هدى. وكانت خالتي  
طامو هي من سهرت على توليدها بخبرة السنين الطويلة.  
وكم كانت فرحتي بمقدمها عظيمة، لأنني كنت أرى فيها خلاصي  
المنتظر!

لكن حدث ما لم يكن في الحسبان، وبقيت لأعيش مع أختي  
زائدة إلى أن شاء الله غير ذلك...



## الفصل الثَّاني:





- بعد حصول المغرب على الاستقلال شرع في عملية استرجاع قانونية لأراضي الاستعمار، وهي الأراضي التي كان المستعمر يمنحها للمعمّرين بمختلف جنسياتهم، بدون مقابل ومع إمكانيات ومساعدات مهمة، لاستغلالها. وعُرفت هذه العملية بمغربة أراضي الاستعمار أو نزع الملكية.

بعد ذلك قامت الدولة بتوزيع جزء من هذه الأراضي، في إطار الإصلاح الزراعي، على عدة مستفيدين ينتمون إلى عدة تعاونيات فلاحية. بينما صار الجزء الآخر ملكاً خاصاً للدولة. وهذا الجزء الذي صار ملكاً للدولة، وضعته هذه الأخيرة تحت تصرف المؤسسة التي أنتمي إليها، وذلك من أجل تلافي أي انهيار أو انقطاع في الإنتاج الزراعي بسبب غياب المستغلين الأوائل، ومعنى هذا أن غاية

الدولة هي الحفاظ على الإنتاج في مستوياته السابقة.  
لكن ما بلغني هذا الصباح هو أن الدولة تبين لها  
أن المؤسسة التي أنتمي إليها عاجزة عجزاً تاماً عن تسيير  
الأراضي التي منحت لها، وأنها تنوي تفويض مسألة  
تدبير شؤونها قريباً للعمالات والأقاليم! سنكون نحن  
هم كبش الفداء يا زائدة!

هكذا حدثني زوجي عبد المجيد ذات مساء مشؤوم.

وحدث أن أصبحنا بين ليلة وضحاها بلا مصدر رزق! شأنا في  
ذلك شأن الشاف عمر، وعدد كبير من أصدقاء زوجي!

\*\*\*

ارتأى بعد ذلك عبد المجيد أن نعود إلى الطويهرة مشيراً إلى أن  
المكان الذي يعرفه المرء أفضل من ذلك الذي يجبهه، على أن نتدبر  
حالنا فيما بعد، فوافقْتُ على وجهة نظره، وسلّمْتُ أمرنا لله تعالى.  
لم نعد للسكن في منزل والديه، كما توقّعت ورجّحت، بل قمنا بكراء  
شقة، لأننا في واقع الحال لم نعد إلى الطويهرة معدمين، فقد حصل  
عبد المجيد على تعويض نظير السنوات التي قضّاها في الخدمة،  
إضافة إلى ما كنا ندخره.

كانت الشقة، إلى جانب ثلاث أخريات، توجد بدار القايد. وكانت هذه الدار عبارة عن رياض قديم، من زمن القياد بالمغرب، قسّمه الورثة إلى شقق للتأجير! وكانت القصص حول الدار وتاريخها تكاد لا تحصى! والله يعلم مدى صحة ما كان يروج، لكنّه كان يروج على أية حال.

في الطابق العلوي كانت توجد شقتنا، قبالتها كانت توجد شقة منّانة. وفي الأسفل كانت توجد شقة حنان، تواجهها شقة بقيت شاغرة مدة طويلة.

كان صحن الدار فسيحاً، مبلّطاً ببديع الفسيفساء ينتهي بسقف زجاجي متحرك في الأعلى. وكان السقف يفتح في أغلب أوقات العام طلباً للإضاءة والدفء، ويغلق في الشتاء درءاً للبرد والمطر والثلج. وكانت النافورة الملبّسة المزركشة برفيع الزليج البلدي، هي زينة الدار. أما الأرائك الإسمنتية المحيطة بها، فكانت مكان اجتماع الأسر الثلاث في الليالي. وأما الفوانيس المبتوثة في الممرات والأدراج، فكانت تغدق على جوّ الدار وقارا وافتتانا خاصا بها، لا يشبهها فيه أي مكان وطأته قدماي من بعد.

كانت منّانة أرملة، وأما لثلاث بنات هنّ نرجس وياسمين وسوسن. وكانت حنان زوجة رجل يغيب حتى الأربعة أشهر لجلب الرزق

ويعود لأسبوعين. وأماً لثلاثة أبناء، ولد وبتان، هم فوزي ومنية ورجاء.

- كيف وجدت جاراتك؟
- ودودات جداً.
- جميل..
- لقد شرحتا لي كيف تسير الأمور بالدار.
- وكيف تسير؟
- كل يوم تسهر واحدة على نظافة محيط النافورة، بينما تنظف الممرات والأدراج، بشكل جماعي، مرة في الأسبوع.
- وפטومة؟
- ما بالها؟
- هل هي على ما يرام؟
- لا تخشى عليها مع وجود فتيات عديدات في مثل سنها.
- في الحقيقة أشعر أنني مذنب في حقها كل الذنب، خاصة بعد وفاة أمك رحمة الله عليها.
- أرجوك لا تقلب المواجع.. فلتتوقف حُباً في الله!

مُسلّحة بالفضول، نزلت الأدراج أتحرى مبعث الصوت!  
 كان الصوت قادمًا من شقة خالتي حنان. وجدتُ الباب مواربا  
 فتجاوزت العتبة دون استئذان، لم يكن ذلك قلة أدب مني، بقدر  
 من كان السبب هو سحر النغمات!

وقع بصري لحظتها على شخص منكفي على آلة وترية يداعب حبالها  
 بخفة ومهارة. كانت الآلة تطاوعه وتستجيب له عن طيب خاطر،  
 فتخرج من جوفها أعذب النغمات، وكان بدوره متماهيا معها  
 يدندن بصوت شجي:

عيّاد.. أعيّاد..

أ ميمتي..

انلحوي البلاد..

أ ميمتي..

عل جرة بضاض..

أ ميمتي..

ناري شحال بكيت..

أ بابا..

ناري شحال شكيت..

أ سيدي..

عل اللي حبيت..

أ ميمتي..

فاقدة للشّعور، مسلوقة اللب باللحن الذي تسرب إلى دواخلي دفعة  
واحدة، أغمضت عيني، فرددت من ورائه:

عيّاد.. أ عيّاد..

أ ميمتي..

انلخاوي البلاد..

أ ميمتي..

عل جرة بضاض..

أ ميمتي..

ناري شخال بكيت..

أ بابا..

ناري شخال شكيت..

أ سيدي..

عل اللي حبيت..

أ ميمتي..

فتحتُ عيني على شاب في مقتبل العمر، كان قد استدار ناحيتي،  
مواصلًا العزف والغناء:

نطلب العالي.

يا بابا..

يريو لحيوط..

أ سيدي..

نطلب العالي..

يا بابا..

يريو لحيوط..

أ سيدي..

ويان المربوط..

أ ميمتي..

دخلت لبيتو..

أ بابا..

مشيت وجيت..

أ سيدي..

دخلت لبيتو..

أ بابا..

مشيت وجيت..

أ سيدي..

ناري شحال بكيت..

أ ميمتي..

فرددتُ من خلفه كرةً أخرى، محافظة على اللحن نفسه:

نطلب العالی..

یا بابا..

یریبو لحيوط..

أ سيدي..

نطلب العالی..

یا بابا..

یریبو لحيوط..

أ سيدي..

ويبان المربوط..

أ ميمتي..

دخلت لبيتو..

أ بابا..

مشيت وجيت..

أ سيدي..

دخلت لبيتو..

أ بابا..

مشيت وجيت..

أ سيدي..

ناري شحال بكيت..

أ ميمتي..

وفور انتهائي بادرني العازف بالسؤال:

- ما اسمك أيتها الجميلة؟

- فطومّة.

- أنا فوزي.. بالمناسبة تملكين اسماً رائعاً!

...

كان ذلك أول إطراء سمعته في حق اسمي!

- هل أتم جيراننا الجدد في الأعلى؟

- نعم..

- نورتم الدار.

- ...

- من حفظك كلمات الأغنية ولحنها؟

- أنتَ

- أنا! أجبني فوزي باستنكار.

(هزرتُ رأسي دلالة التأكيد)

- هل هذه المرة الأولى التي تسمعين فيها الأغنية؟

- أجل.

- إذا صحَّ قولك، فأنت حقاً قطعة نادرة!

وكانت فطومة قطعة نادرة بحفظها لما تسمع من الوهلة الأولى!  
كانت تملك ذاكرة مغناطيسية! شكَّلتُ وإياها ثنائياً متكاملًا،  
أنا أعزف على الوتر وهي تلقي ما تسمعه مني من قصائد تراثية  
بإتقان وروعة.

بمقدمها تزيّنت الدار وأخذت زخرفاً جديداً، فصرنا نسهر حتى  
ساعات متأخرة من الليل، مع متعة مضمونة للجميع.

من حسن حظي أنني تعرفت على فطومة، ومن سوء حظي أنني

فقدتها بتلك السرعة!

لقد كانت الشخص الوحيد الذي أعطى لعزفي وذوقي وموسيقاي...  
معنى، بتلك الاستجابة المنقطعة النظير، وذلك التفاعل الحماسي،  
قبل أن أحمل محفظة ظهري ذات صباح وأغادر...

في الخارج كان رذاذ المطر يداعب أطراف النوافذ. وفي الداخل كان السائق بطربوش صوفي وملاح متجهمة يماحك بخبرة السنين الطوال منعرجات والتواءات طريق الوحدة.

جلست بمحاذاته غير آبه ببقية الركاب من خلفنا، وفي رأسي موال أريد أن أغنيه على طريقي الخاصة.

نزلت من سيارة الأجرة، فاستقبلتني نسيمات هواء نقي أنعشت مهجتي. بسطت ذراعي وكجرو صغير تمطّيت، قبل أن يصيح بي السائق بصوت كالح كوجهه:

- أ السي ... ديالك هادي؟ وأشار إلى حقيبة أغراضي.

تناولتها بانزعاج ومشيت مبتعدا، وكنت قد دسست فيها آتي التي لا يتجاوز طولها المتر، وضعتها بعناية بالغة بين الملابس حتى لا

تأذى.

كان المطر الخفيف قد توقف تاركاً المجال أمام خيوط الشمس التي انقشعت من بين الغيوم، وكانت بلدة إكاون غارقة في استقبال عشرات الوافدين من شتى أنحاء المغرب، ممن يرغبون في العمل في حقول الكيف.

تفقدت الساعة على معصمي، كانت تشير إلى تمام الحادية عشرة صباحاً، فقلتُ محدثاً نفسي:

- فرصة الحصول على عمل هذا اليوم ما تزال قائمة.

وتوجّهت إلى الموقف، حيث بجافل طالبي العمل.

تفرّستُ ملامحاً نهشتها سياط الحياة، تاركة ندوبها على الوجوه العابسة، والأصوات المخنوقة، والعيون الذابلة، والصدور الواجفة. لا لغة يتقنها هؤلاء إلا لغة السواعد، وصلابة القلب. كنت أعلم هذا وأقدّره جيداً.

- البوڤري أ البوڤري.. هل أنت لوحذك؟

استدرتُ ناحية الصّوت، فوق بصري على رجل قمحي البشرة.

- ولم هذا السؤال؟

فاقتّر ثغره عن أسنان سوداء، وقال:

- يجب أن تكون ضمن مجموعة حتى تحصل على عمل هنا، فالمشغل يتفاهم مع المجموعة بأكملها وليس مع الفرد الواحد.

فهمتُ مبتغاه، فهو يدعوني إلى مجموعته.

- وأين هي جماعتك؟

- أنا.. وأنت!

- والبقية؟ سألته.

- سنتدبر الأمر.

بسّطُ يدي لتحيته، فرد المصافحة قائلاً:

- عزيز.

فقلت:

- البوڤري كما تفضّلت.

لم أستطع بمعية عزيز أن نشكل مجموعتنا الخاصة، بل حدث أن انضممنا إلى أخرى، كانوا أربعة، أحمد الصحراوي وعبد الحفيظ

الحيايى وعبد السلام الجبلى ومسعود، فصرنا ستة.

وضعنا حقائبنا أرضاً، وجلسنا بمحاذاها ننتظر مع المنتظرين.

طاف حولنا رجلان، أحاطانا بنظرات فاحصة، وكم ذكرني المشهد بما قرأته عن سوق النخاسة قديماً، حيث كان المشتري يبحث عما يناسبه في البضاعة. فإذا كانت السلعة المعروضة ذكراً، نظر إلى ذراعيه وجثته. وإذا كانت أنثى، نظر إلى وجهها وثديها وخصرها...

ومن قال أنّ زمن العبودية قد ولىّ، فاعليه إلاّ الذهاب إلى هناك والتأكد من زعمه الخاطيء بنفسه.

- كم تطلبون؟

صاح الأول.

- وكم تقترحون؟ ردّ عمى الصحراوي.

- 50 درهم، مع المبيت والأكل. قال الرجل

الثاني.

- إلى حدود الساعة الثانية زوالاً.

- بل حتى مغيب الشمس.

واستدرك قائلاً:

- نحن في بدابة شهر مارس، والشمس تغيب  
باكرًا.

- ومع ذلك نطلب 80 درهم.

عاد الرجل الذي خاطبنا أولاً، فدخل على الخط قائلاً:

- 60 درهم مع أكل طيب، ومبيت لائق،  
وتدخين جيد. (وكان يعني تدخين الحشيش  
والكيف).

وبعد مشاورات طفيفة قبلنا بعرضهما.

ركبنا سيارة رباعية الدفع. جلس الرجلان في المقدمة، بينما  
تكدّسنا، نحن الستة في الخلف، فوق صناديق الخضر وقناني الغاز  
وأكياس الإسمنت.

نظرت إلى زملائي الجدد، كانوا جميعاً هائمين في عوالمهم، غارقين  
في أسماهم القدرة.

حوّلت بصري باتجاه المدى البعيد. كان قرص الشمس يتقهقر  
رويداً رويداً، وكانت الجبال تحيط بنا من كل الجهات.

- هذه إذن هي جبال الريف الشامخة. غمغمت  
في سريرتي.

كانت الأشجار الباسقة تكسو أديم الأرض، فكانت تضفي مسحة من الجلال والعظمة على العوالم التي كنت أستقبل تفاصيلها لأول مرة في حياتي.

على الجانب الأيمن لمحتُ واديا عميقاً، تزينه زرقة ماء النهر الذي يمر عبره. وعلى الجانب الأيسر أبصرتُ صخرةً بحجم عمارة تقف بحذر على جانب الطريق الوحيد الداخل إلى الأعماق النائبة، حتى إذا دنونا منها، بل صرنا تحتها، تكشف لي حجمها الحقيقي. لقد كانت جبلا مائلا وليست صخرة كما لاحت لي من بعيد!

- يكفي أن تنزح هذه الكلة الحجرية قليلاً حتى ينقطع دابر هؤلاء القوم إلى الأبد! قلتُ بقلب وجل.

وما خلفنا الوادي وراء ظهرنا حتى توقفت السيارة عن المسير فجأة، ومنها نزل السائق يحمل بندقية صيده. طلقة أولى.. طلقة ثانية.. طلقة ثالثة.. طلقة رابعة. فأما الرؤوس فتطاوت من المقطورة الخلفية للسيارة تعين المشهد بفضول. وأما الضحايا فكانا خنزيران صغيران وأمهما.

ناول السائق البندقية لصديقه وهو يخاطبه بابتسامة ولهجة ريفية، ورمانا نحن بنظرات طالحة بالوعيد! ثم واصلنا المسير...

لفت انتباهي شكل البيوت، كانت تشبه إلى حد بعيد البيوت هناك في كوبا وكولومبيا، كما رأيتها في إحدى المجلات!

- ما اسم هذا المكان؟ سألت الجميع.
- دوار المخزن. قال قائل منهم.

وكنا كلنا مضيئينا قدما باتجاه الأعلى إلا وخلفنا دوار المخزن يغرق تدريجياً عند السفح.

- وما اسم هذا المكان؟
- دوار بني أحمد.
- ...؟
- دوار بني عيسى.

لم أكن قد تعرّفت بعد على الرجل الذي كان يجيب على أسئلتي، لكنه أفهمني أنه سابق العهد بالمكان.

توقفت السيارة للمرة الثانية أمام ما يشبه المقهى. نزل مرافق السائق، وكان واضحاً أن مهمته قد انتهت. وما اقترب من مدخلها حتى اشتبك بالحديث مع بعض الجالسين. ولم أتبين من لسانهم الريفي إلا قوله:

- 6000 فرنك.

ومع آذان المغرب كما قد بلغنا إلى المكان المرجو. ساعدنا الرجل على إنزال وإدخال ما أحضر معه من أغراض، ولحقنا به إلى المكان المخصص لنا. كان عبارة عن غرفة ومرحاض قد انتصبا لوحدهما في العراء، على مقربة من شجرة أرز، وعلى مبعدة من منزله بما يربو عن الثلاثين متراً.

- هنا مقامكم.

فتساءلت في نفسي مستغرباً:

- هل هذا ما قصده بالمبيت اللائق؟

ومن فوره جلب كلباً ضخماً، فأحكم وثاقه بجذع الشجرة!

ولجنا إلى الغرفة. كانت خالية إلا من طاولة حديدية صغيرة، وحصير متآكل، وبضع بطانيات، ووسائد تعد على رؤوس الأصابع، وموقدا بث بمحاذاته إبريق متوسط الحجم، وكسي خشبي يتيم.

- سأحضر لكم العشاء عندما يجهز، وسأجلب

لكم السكر والشاي حتى تعدّوه لأنفسكم متى  
عنّ لكم ذلك.

قال صاحب البيت، ثم انسحب.

وانهمكنا نحن في ترتيب أماكننا، وتقسيم البطانيات والوسائد،  
وتعليق المحافظ وبسط الأمتعة القليلة.

- ينبغي ملؤها قريباً حتى لا نبقي عرضة لبرد  
كثامة القارس. دمدم عزيز، وقد لاحظ وجود  
شقوق في الجدران.
- سنحتاج الكرتون لذلك. رد عمي الصحراوي.

وبعد مرور ساعتين من الزمن، كان العشاء فوق الطاولة (أرز  
بالحليب). وما وضعه الرجل حتى قفل عائداً إلى بيته. وعند العتبة  
توقف، فقال:

- إليكم ما وعدتكم به!

وبخطى واثقة تقدم صوب المائدة، حتى إذا انتصب فوقنا أخرج  
من جيب سرواله كرة بحجم تفاحة صغيرة، وقال بزهو:

- ها هي الكثامية الحبيبة.

فهش قلب واحد لمرآها.

- تصبحون على خير. أراكم صباحاً.

\*\*\*

قبيل شروق الشمس هبّ المشغلُّ، وكان اسمه رحّال، إلى إيقاظنا من مضاجعنا، وكان يحمل معه وجبة الفطور، حليب وقهوة وخبز وزيت وزيتون.

بعد تناول الفطور على عجل تزعم رحّال المسير، ومن بعده لحقته البغلة تحمل على ظهرها المعاول والطعام، وخلفهم نحن، ومن ورائنا شابة في العشرينات من عمرها.

- من تكون؟ أهي ابنته؟ تساءلت بفضول.

سرنا خبياً في طريق ملتو بين الصخور والفجاج باتجاه قمة الجبل. كان رحال رشيق الخطوات، وكانت بغلته تحفظ المسالك عن ظهر قلب.

- يا إلهي الحبيب ما هذه الطبيعة الخلابة! غمغمت منبراً.

كما كلها سمونا عالياً لاحت إلينا صورٌ تفتق جمالاً وحسناً. أشجار جوز ضاربة الجذور في عمق الأرض. أشجار أرز قل نظيرها في الكون. مياه تنهمر دموعا بلورية من مآقي الجبل. أصوات العصافير يتردد شدوها عبر المدى الصاعد إلى السماء الزرقاء. خرير يأتيك متقطعا حيناً، وصاخبا كلها أرهفت السمع.

- هذا هو إذن سحر الكّامة الذي سمعت عنه!  
- لقد وصلنا. نطق رحال.

وأشار بيده إلى رقع أرضية متناثرة عند عنق جبل تدخين، أعلى قمة  
في جبال الريف الموغلة تربتها في أبجدية الزمن.

- دعوني أستمع بصوت «الكاشو» (معول يستعمل في  
زراعة القنب الهندي). صدح رحال باسماء.

- شمّروا على سواعدكم يا رجال ودعونا نشق الأرض  
صعوداً! زعق عمي الصحراوي بصوت عال رد الجبل  
صداه.

- بسم الله...

واصطفنا كما يصطف المتسابقون عند خط البداية. رفعت يدي  
عالياً حتى حجبت عليّ مقدمة المعول نور الشمس المطلة من وراء  
حجاب الصخور، وغرستُ نايه عميقاً في قرارة الأرض.

جلس رحال فوق صخرة، وجعل يلف لنفسه لفافة حشيش تزيد  
من انتشائه بصوت ارتطام الحديد بالحجر. أما السيدة التي رافقتنا  
فتوارت عن الأنظار هي والبعلة!

وكان رحال كلّما نثر الدخان في الفضاء إلّا وشيّهه بكلمات ريفية

تعكس ما بسريرته من ارتياح. ولما انتصف اليوم، وقف فوق الصخرة كديك مفتتن بألوان ريشه، وراح يُكَبِّر!

الله أكبر.. الله أكبر

الله أكبر.. الله أكبر

ثم توجه بالخطاب إلينا:

- تعالوا يا رجال! تعالوا! إنه وقت الصلاة والغذاء.

ومن خلف الأعشاب ظهرت السيدة المرافقة له. بسطت منديلاً رقيقاً على الصخرة، وعليه فردت ما تيسر من طعام.

- ماذا تفعل يا رجل؟ سأل رحال مسعوداً

باستغراب.

- أغسل يدي!

- يد الفلاح نقية. فقط امسح يديك وتعال.

- كذلك الأمر يد الفلاح نقية! عَقَّب الحيائي.

بأنفاس متقطعة أخذنا نتخاطف اللقيمات، وكان الجوع قد أخذ منا كل مأخذ.

مالت الشمس باتجاه الغرب، وكم انتظرت وقوف رحال مجدداً

فوق الصخرة! نظرت إليه فوجدته غائباً عن مكانه، وهو الذي لم يبرحه خلال الساعات الماضية. توقفت لالتقاط أنفاسي. عاينت يداي، وأنا أحاول أن أداري الألم الذي ألم بهما. لقد التهبنا على مستوى تماس القبضتين الداخليتين اللتين تمسكان بالمعول.

- ما يزال أمامي على الأقل ساعتان من العمل،  
وعليّ أن أثبت، لنفسي قبل الجميع، جدارتي  
وصلابتي!

همستُ أقطع على نفسي الشهوة في التراخي.

- لكن لا بأس باستراحة طفيفة. استدركتُ.

أرخيتُ المعول أرضاً ورحت لقضاء حاجتي. وغير بعيد سمعت  
أنينا مصحوباً بهمس متهدج!

حذراً تابعت انخطو. توقفت. أصغيت بتركيز. مضيت قدماً.  
أزحت بعض الأعشاب، فرأيت..

رأيتُ رحالا وهو يركب السيدة التي جاءت بصحبتنا كما تُركب  
الدّابة!

تبيّستُ في موقفي. لحظتها استدارت السيدة، وكأنها سمعت  
حسيس أقدامي، فوقع بصرها علي، بل التقت نظراتنا.

أما رحال فكان سابحا في يم اللذة العظمى...

\*\*\*

خائري القوى قفلنا عائدين في ذلك المساء. كان اليوم الأول من نوعه بالنسبة إلي، وكان لزاماً عليّ أن أصطر وأتجلّد. ولما كنت أغلب الوجع الذي تضاعف بعدما غسلت يداي، دس عمي الصحراوي يده في فراشي وأعطاني مرهما، ثم خاطبني بدفء أبوي:

- هو هكذا لأنه اليوم الأول فقط.. ستعتاد!

واعتدتُ..

واعتدنا..

وسرعان ما تبدلت أحوال الغرفة.

لم نعد نؤوب فندس في الفراش، بل صرنا نتجاذب أطراف الحديث، ونلعب الضامة، وأحياناً الورق، وكثيراً ما كان التراشق بالكلام يصل حداً بعيداً بين الحياني والجبلي، وغالباً ما كنا نتسلى بأقوالهما.

أما صمت مسعود وغموضه فقد قابلته رحابة صدر عزيز، وخفة

روح عمي الصحراوي ودعابته. وكان هذا الأخير يقص علينا  
حكايات متفردة!

وقد روى لنا في مرّات مختلفة، فقال:

يحكى يا أصحاب أن رجلاً ذهب إلى الحّمّام قبيل الفجر، حتى  
يتسنى له اللحاق بعمله صباحاً، وهناك ألفاه يغص بالمستحمين،  
فاستغرب من ذلك أيما استغراب!

أخذ لنفسه مجلساً عند الزاوية وجعل يستمتع بدفء المكان.  
شيئاً فشيئاً تعودت عيناه على الرؤية، وقد ساعده انجلاء البخار  
المتصاعد من «البرّمة» (حوض من الزليج يخزن فيه الماء الساخن  
الذي ينهل منه المستحمون) فأبصر رجلاً بجوافر حيوانات!  
أدرك لحظتها أنه في حضرة نفر من الجن.

زاد انكاشاً في مجلسه، وطفق يسارع الزمن للانتهاء ومغادرة المكان  
حتى لا يقع في المحذور.

وعلى عكس المنتظر أخذ الرجال يغنون ويصفقون بأيديهم،  
والسعادة تداعب خالجاتهم:

- الخميس والجمعة والسبت.. الخميس والجمعة  
والسبت.. الخميس والجمعة والسبت..

وإنهم لفي غمرة الحبور حتى تدخل صاحبنا قائلاً، محاولاً إضفاء  
المزيد من المرح:

- لو سمحتم عندي اقتراح سيضفي على الكلمات  
المنشودة رونقاً خاصاً.

توقفت الحناجر والأيادي، فهتف صاحبنا قائلاً:

- الخميس والجمعة والسبت.. كسكسو بالزبيدة  
واللفت.

وتعالّت الأصوات مرددة من خلفه:

- الخميس والجمعة والسبت.. كسكسو بالزبيدة  
واللفت..

الخميس والجمعة والسبت.. كسكسو بالزبيدة واللفت..

الخميس والجمعة والسبت.. كسكسو بالزبيدة واللفت..

وكم أعجب هذا كبير الجن، فسعى لرد الجميل بقوله:

- اطلب ما شئت!

وقتك اقترب منه صاحبنا، حتى إذا بلغ مقعده استدار وقال:

- ما أرجوه منك يا سيدي الكريم هو أن تخلصني  
من هذا الشؤم. وأشار صاحبنا إلى ظهره  
الأحذب.

مدّ كبير الجن يده، وما هي إلا ثوان حتى صار الاعوجاج في خبر  
كان! وعاد صاحبنا إلى أهله مبشورا.

بعد تصرّم عدة أيام جاءه صديق، كان هو الآخر أحذب الظهر،  
يسأله عن سر تخلصه من العاهة المشينة. وما كان من صاحبنا  
إلا أن أطلعه على السر، فأوصاه بالذهاب باكراً إلى الحمام المعلوم،  
والاندماج في المجموعة من خلال الغناء معهم، وانتظار الفرج.  
وكذلك فعل الرجل، فوجد ما أخبره صاحبنا حقاً. مدعورا قبع  
في مكانه حتى اشتد القرع على السطول، وتعالى الأصوات. عندها  
وقف وخاطبهم قائلاً:

- لو سمحتم عندي اقتراح سيضفي على الكلمات  
المنشودة رونقا خاصاً.

أشار إليه كبير الجن تفضل، فهتف الرجل بصوت مرتجف:

- الخميس والجمعة والسبت.. كسكسو بالزبيدة  
واللفت.. واللبن فيه.  
- كرر ما قلت!

- انخميس والجمعة والسبت.. كسكسو بالزبيدة  
واللفت.. واللبن فيه.
- ما هذا النشار! أحضروه.. أحضروه!

وفي لمح البصر صار للرجل حدبتان في ظهره!

ويحكى يا أحباب أن فقيها قام في المحراب يؤم، فقراً «لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة» فالتبست عليه القراءة وارتج عليه فشهّر به القراء في المدينة. وإذا به يعرض عن قراءتها في إمامته بالكامل حيناً من الدهر طويلاً. ثم اتفق أن قام في المحراب يوم جمعة جامع والمسجد منغص بالمصلين، محتفل بأهل القرآن ممتلئ بهم، فيهم الفقيه القشقوش وفيهم الثماني، فنزغ نزع إلى «لم يكن» فقراً، فتلجلج واشتدت عليه القراءة، واستغلق عليه الكلام حتى لّقنه الناس وفتحوا عليه، ولقّموه من كل جانب، فاعتقل لسانه ولم يفتح عليه بشيء، فاضطرب فترك القراءة وركع على عجل. ولما قضى الصلاة تسلل إلى مقصورته ناكس الرأس عجلان أسفاً. فما لبث أن دخل عليه رجال من أصحابه مغاضبين وقالوا:

- إن الذكر الحكيم لمائة وأربع عشرة سورة،  
والمفصل منه خمس وستون سورة من «ق»

إلى «الناس»، ويأبى عنادك الأخرق إلا أن  
تجترئ على «البيّنة» لتقيم بذلك البيّنة على  
خورك ومهانتك. ولقد غالبتها من قبل مرّات  
فغلبتكم ثم غلبتكم. فإذا جاء بك كرة أخرى  
إليها؟

فقال المسكين متخضعا مقرا على نفسه:

- إيه! السور فوق منك وتحت منك أنا اللي  
دوّرت عليك! واش داني ليك أ «لم يكن»؟

ويحكى يا رجال أن فلاحا كان منهمكا في حرث أرضه بمجراه  
الخشبي حتى فاجأه مواء هريّ صغير. لحظتها أعطى لجماره استراحة  
وتقدم باتجاه الضيف الجميل. حمله بين ذراعيه وراح يربت عليه  
ويمسح شعره النقي. أخرج زوادته وتقاسم معه الطعام، ولبث  
يتفقده من حين لآخر حتى غابت الشمس وحمله معه إلى منزله.  
وهناك استقبل صغاره الهر بفرحة لا تضارع.

في الصباح الباكر عاد الفلاح إلى حرث أرضه وترك الهر في رعاية  
أطفاله بعدما أوصى زوجته به.

وطيلة ذلك اليوم ما انفك صدى صوت غريب يبلغ إلى سمعه:

موغي.. موغي أوليدي فين راك؟

موغي.. موغي أوليدي فين راك؟

موغي.. موغي...

وكم حاول جاهداً تبين مبعث الصوت لكنه ما استطاع!

في الليل، وبينما كان يتناول العشاء مع زوجته وأولاده، قص عليهم حكاية الصوت الغريب، حتى إذا فرغ من حديثه نطق الهر من تحت المائدة قائلاً:

- هديك راها أمي.

ساد الدهول في الغرفة قبل أن يقطع الفلاح بقوله:

- عليك الأمان أ ولدي.. عليك الأمان.

في الغد، وفور وصوله إلى الحقل توجه الفلاح إلى المكان الذي وجد فيه الهر، فقبله وأعادته إليه.

ولما انتهى اليوم وقرر العودة إلى منزله فكر في تفقد الهر قبل ذلك. وهناك يا سادة يا كرام وجد صندوقاً من الذهب الخالص في انتظاره!

ويحكى يا أحباب أن موشي، وهو رجل من اليهود، كان في ليلة

من ليالي الربيع، والسماء مقمرة، يتبرّز في الفضاء الواسع خلّو منزله الضيق من المرحاض، وعجّونة زوجته قائمة على رأسه تحدّثه وتؤنسه وتؤمنه!

أعجب موشي بهاء الليل الساجي، وهزّته نسمة عليلة رقيقة هدهدت خده، فرنا إلى البدر المكتمل وقال بعنترية:

- هاد الليلة غير د سريك البكر من دنشالة! (هذه الليلة ليست لغير سرق البقر من قبيلة دكالة).

فقالت عجّونة بعدها، وهي تشير إليه بالأصبع الوسطى:

- أ خيضم أ موشي ف خرائش! (اهتمّ يا موشي بخرائك)

ويحكى أنه كان من عادة أحد الأولياء من ذوي الكرامات الظاهرة والأحوال الباهرة أن يركب البحر حين تسكن الأمواج، إذ كان يمدّ سجّادته على الماء ثم يستوي فوقها منتصباً، فتنتطق به بقدره قادر تمخر العباب!

واتفق في بعض الأيام أن لقي على غير إرادة، راعيا فقيراً ينفخ في ناي. دنا منه وحيّاه بتحية الإسلام، ولكن الفتى بدا ساهماً شارداً فلم يحفل به، ولم يرد عليه تحيته. وكان قطع أغنام الراعي يصيح

للصوت الندي سمعا، فتعجب الولي الصالح وقال في سره: أليس الحق أن الآلة مزور الشيطان؟

وانتبه له الفتى فجأة، فاعتذر وقال:

- إني نذرت للرحمن نذرا لئن آتاني من فضله  
ولداً ذكراً لأنفخن في الناي صوماً ثلاثة أيام  
متتابعات. فلها استجاب الله دعائي، قمت أوفي  
بالنذر شكراً لله تعالى على ما أعطى.

فقال الولي الصالح:

- إنَّ الشيطان العين لينفس عن كربه السرمدى  
بالرنين في القصب. واعلم أيها المسكين، أن الله  
العظيم لا يتقبل مثل هذا الوفاء الضال. فأقبل  
علي أعلمك ما يقربك من خالقك!

ثم أقرأه الفاتحة والمعوذتين وعلّمه الصلوات المكتوبة حتى ظن  
أنها لاقت بقلبه ولصقت بصدره، ثم مضى على سجاداته في عرض  
البحر حتى كاد يغيب عن الأعين.

وأقبل الفتى من حينه يستعيد ما استظهر، ولكنه التبتت عليه  
الآيات، واشتبه عليه اللفظ، وارتبك في أمره حتى نسي كل

شيء. فكان منه أن انطلق يسابق الريح ماشيا على متن البحر، راجبا  
رجليه الخافيتين إلى أن أدرك الولي الصالح وصاح به:

- يا سيدي المفضل عفوك عن النبيّ عفا الله  
عنك! لقد أنسيت كل شيء. فهلاّ تفضلت  
مشكورا فأعدته عليّ حتى يعيه قلبي؟

بهت الولي الصالح وتخيّر وكأنه ما أيقن ما عين وقال:

- لله الصادق المصدوق حيث قال «إنما الأعمال  
بالنيات. ومن نوى شيئا يحصل له. ارجع  
إلى شويهاتك موفقا معانا، وزمّر ما طاب  
لك الزمير. فأنت الخفي المرزوق حقا... والله  
وليك!

\*\*\*

في اليوم الخامس انقسمنا.

ذهب عمي الصحراوي والحياضي والجلبي ومسعود لمعالجة أرض  
عند حواف النهر في دوار تبطين. ورحتُ بمعية رحّال وعزيز  
والسيدة التي دأبت على مرافقتنا إلى أرض أخرى، وكنا قد توجهنا  
إليها قصد تسميدها بروث الماعز.

وبينما كما صاعدين إلى هناك، زلّ حافر البغلة، فالتوى وانكسر!  
جُنَّ جنون رحّال، وراح يردد بامتعاض شديد:

- إلاّ البغلة.. إلاّ البغلة! إلاّ البغلة.. إلاّ البغلة!

ومن أين له بوحدة في ذلك الوقت والكل منشغل بزراعة القنب  
الهندي؟

ثارت نائرتّه وأنشأ يصرخ بأعلى صوته، ويشتم بلسانه الريفّي.  
حاول عزيز عبثاً مساعدة البغلة المسكينة التي انبطحت على جنبها  
واستسلمت للقدر المشؤوم الذي ألمّ بها.

نطقت السيدة المرافقة لنا بكلام ريفي لم أتبينه أنا وعزيز، فجاء  
قول رحّال:

- ستعود معي أنت يا عزيز، وسنذهب لإحضار  
من يساعد البغلة. وأنت (أشار إليّ بسبّابته)  
أكل طريقك برفقة نجاة! إنها تعرف مكان  
الروث، وتعرف ما يتوجب عليكما فعله.

ومدّ إليها كيساً من الخيش.

واقترقنا..

هما عادا.. ونحن أكملنا صعوداً.. والبغلة بقيت حيث هي بلا حراك.

- إنه زوجي.

قالت نجاة بلسان فهمته هذه المرة.

- !...

- أنا زوجته الثانية.

- !...

- حتى لا تظن شيئاً سيئاً.

قالت تخلي ذمتها من الذي رأيته.

- لكن...

هممتُ أن أتكلم فعقلت الحيرة لساني.

وصلنا إلى المكان حيث روث الماعز، فأخرجت زوجة رحّال كيس الخيش وقالت:

- أنت تملأ كيس الخيش بالروث، وأنا أحمله على

ظهري، حيث طُمرت بذور القنب الهندي.

- ماذا!

- هذا ما قاله رحّال.. وهذا ما سيكون.
- ولكن...
- عليك بملء الكيس والانتظار هنا حتى أعود إليك لتجنّب نفسك المشاكل.
- ولكن أي زوج هذا الذي يرضى لزوجته أن تقوم مقام البغلة! تساءلت وأنا أشيعها بنظراتي.

\*\*\*

تأكّد رحّال من عدم شفاء البغلة، فأحضر بندقيته وأطلق النار عليها!

وبعد ذلك الحادث المأساوي، جاء تساقط الثلج فزاد الطين بلة.

- ستبقون هنا يوماً آخر في انتظار توقف تساقط الثلوج. قال رحّال قبل أن يغلق الباب من خلفه وينصرف.

التصقّتُ بجدار الغرفة ونزعت قطعة كرتون من أحد الشقوق، وطفقت أعين بلورات الجليد وهي تداعب الطبيعة العذراء.

- يا إلهي الحبيب ما هذا السحر الذي يسلب الألباب!

تمنيت لحظتها لو أن في الغرفة نافذة ومدفئة، لكن لا بأس كأس شاي ساخن وهذه الإطالة الصغيرة على المدى الأبيض تكفي. أعدت القطعة المنزوعة إلى مكانها وقت أصنع إبريق شاي.

في الخارج وصل إلي صوت ارتطام، كان يشبه صوت تقطيع الخشب. نظرت من الكوة الصغيرة للباب، فأبصرت زوجة رحّال تعالج كومة من الخشب بفأسها، والثلج يكسو ظهرها!

- أيّ فعل شنيع فعلته هذه المخلوقة حتى يعاملها رحّال هكذا؟

في الليل قدم إلينا رحّال بصحن كبير من الأرز والحليب!

وضعه على المائدة المنتصبة في وسط الغرفة، وجلس على الكرسي قريباً من الباب الذي ظل موارباً.

- العاصفة في الخارج شديدة. قال رحّال وهو يتفقد جيوب معطفه الرمادي.

بحلقنا في صحن الأرز خائبين، واقتربنا منه كما تفعل الذئاب الجائعة بطريدها.

- من منكم يدخل الحشيش؟ سألنا رحّال.

- أنا. غمغم مسعود.

- لا شك أنك تقدر سحر العشبة؟ نبر رحال وهو  
يلحس بلسانه أطراف لفافة الحشيش التي  
يعدها.

اكتفى مسعود بابتسامة صفراء، وعاد للغوص في بياض الصحن.  
ومع اشتداد صوت ارتطام المعالق بقعر الصحن، انبرى رحال  
للكلام بدون تحرج:

- زوجتي الأولى لم تقو على فحولتي فاضطرت  
للزواج من أخرى. والسبب هو العشبة الحبيبة.  
يقولون أنها تصلح للتجميل، وبأنهم يسعون إلى  
تقنين زراعتها. لا أعلم.. لا أعلم ماذا سيحدث  
عندما يكتشفون سرها الحقيقي.

قال رحال كلماته فأطلق ضحكة صاحبة.

عب أنفاسا من لفافته ثم عاد لحديثه الأول:

- ذات مرة كنت مسافراً إلى مدينة الناظور على  
متن الحافلة، وهناك رأيت سيدة تجلس على  
مبعدة مني ببضع مقاعد. كانت تجول ببصرها  
في كل الأرجاء وتملأ في مقعدها كفرس

حرون. فهمت ما بها، وجعلت أقترب منها  
كلما توقفت الحافلة ونزل منها راكب ماء. وعند  
مشارف مدينة الناظور كنت قد آويت إلى  
جوارها.

- ماذا بعد؟

سأله مسعود.

مبسوط السريرة واصل رحّال:

- نزلنا من الحافلة، وقصدنا فندقاً، وهناك...

- وهناك ماذا؟ سأل عزيز، وقد اكتفى من  
الأكل.

- هناك أذقتها من سحر العشبة الكّامية.

قال رحّال مزهواً، فأطلق العنان لضحكات متواصلة، وكذلك  
ضحكنا معه.

- هل تستطيع أن تنام فوق المرأة؟

نطق عمي الصحراوي موجهها سؤاله لرحّال بشكل فجائي ومباشر.

فقط رحّال شفته السفلى تعجّباً وقال:

- بالطبع أفعل.. ومن عساه لا يفعل؟

-أنا. أجاب عمي الصحراوي.

فوقع بصرنا جميعاً عليه!

- لم أستطع يوماً أن أصعد فوق إحداهن. أعلم

أنها منة عظيمة، وقد شاءت الأقدار أن أحرم

منها حياتي كلها.

- ولماذا.

سأل عزيز بسداجة.

فأشار له عمي الصحراوي بحركة من يده موضحاً مقصده، دون أن

ينبس بكلمة.

- نفعنا الله ببركتك يا عمي الصحراوي. قال

الحياني، وارتمى على بطنه من شدة الضحك

والسعال.

ورددنا من بعده مقهقهين:

- نفعنا الله ببركتك يا عمي الصحراوي...

أما رحال فوقف وغادرنا متجهما!

ومع انسحابه، وضعت الملعقة على المائدة، فانتصبت واقفاً، حتى إذا دنوت من محفظة أغراضى أخرجت الوتر وسط ذهول الجالسىن.

- هذا البرد القارس لن ينفع معه إلاّ هذا (وأشرت

إلى الآلة بين يدي). فابتهجت القلوب لمرآه وهلّلت.

- اسمحوا لى يا رجال أن أسمعكم قصيدة «تقرع مول

السببى»

- الله يسخر. الله يسخر. قال أحدهم بحماس.

هادى قصة رجل قديم كان..

عالم حكيم ليه ماضى وشان..

ذو صولة فذاك الزمان..

الشهرة والحظ المتىن..

كان مترفّه يا من تسال..

عندو الملاك مع المال..

اولادو فالزمان رجال..

ثلاثة من الرّاشدىن..

واحد طالب علمو نفع..

واجد تاجر مالو بجمع ..  
 الثالث في اوصافو قرع ..  
 سكليري من المحشين!  
 نهار مرض التاجر وبغي يموت ..  
 نادى على اولادو من البيوت ..  
 قال ليهم ها بيت الخزين ..  
 أما ذاك البيت اللي لهيه ..  
 اللي فتحو راه بخطي عليه!  
 وترك وصية لولدو الفقيه ..  
 على الكفن وافي والدفين ..  
 مات بوهم وجهزو ..  
 رجع لقرع عند خو ..  
 أراو لينا الورث نفرقوه ..  
 علاش نبقاو متشاركين!

فرقو الأموال بلا عدد..

التاجر فيهم مالو تزداد..

لقرع شرع فالفساد..

والطالب من الصالحين..

لقرع لعب فكلشي!

بغى يسكر ما صابشي..

رجع نلوتو بالمشي..

قال ليهم تتوضوا اثنين..

ذاك البيت نقلبوه..

قالو ليه يا مسخوط بوه!

حنا علاش نقربوه!

ما خفتي من سنط الوالدين!

قال ليهم أنا تتخب..

تمشيو معايا بالغصب..

البيت عامر بالذهب!  
 حضرو بثلاثة للفتيح..  
 زاد لقرع هو الصحيح..  
 لقي البيت كيسيح!  
 قال ليهم يا المدوخين!  
 بوم دعاوي البلا..  
 خازن شاشية غاملة!  
 مع هيضورة كاملة!  
 وسبسي والمطوي اثنين!  
 نفرق ليكم هاد الجبوس..  
 خوذ أنت شاشية للبوس..  
 وأنت الهيضورة للجلوس..  
 وأنا والسبسي ناضيين.  
 خرج لقرع وشرا الكيف..

رَشَقَ لِيهِ بِالْمَطْوِي ظَرِيفٌ ..  
قَصَّ تَقْصِيصَةً مِنَ الْكَيْفِ ..  
عَمَّرَ وَشَعَلَ وَكَمَى فَخِينٌ ..  
عَمَّرَ سَبْسِيَهُ وَشَقَّفُو ضَرْبٌ ..  
رَمَى لِيهِ كُورَةً مِنَ الذَّهَبِ !!!  
قَالَ لِقَرَعٍ هَكَذَا نَحَبٌ ..  
هَذَا سَبْسِي زَوِينِ!  
عَمَّرَ ثَانِيًا وَبَدَأَ يَرَى ..  
رَمَى لِيهِ كُورَةً أُخْرَى ..  
تَبَنَجَ بِالْكَيفِ وَرَشَقَ لِيهِ ..  
مَشَى لِلْمَشُورِ وَظَلَّ فِيهِ ..  
وَبَنَتِ السُّلْطَانُ تَشُوفَ فِيهِ ..  
يَكْمِي وَرِيْقُو نَازِلِينَ ..  
بَنَتِ السُّلْطَانُ مَجْبَدَةً!

قالت للخادم ساعدة..  
 هذاك حكيم ذو فائدة..  
 عندو سبسي يرمي الذهب..  
 خرجي عندو يا عايلة..  
 حوزيه وقولي ساهلة..  
 نوض تكلم للالة..  
 بنت السلطان بها وزين..  
 مغرومة فيك يا د الشباب..  
 هي راها ترجاك في كل باب..  
 وأنت من الغافلين..  
 بغاتك تجلس قدامها..  
 تمتعها بذاك البها..  
 كيف تحبك تحبها..  
 ويكون قلبك عليها حنين..

أنت مبروك بهاذ اليوم السعيد..  
نوض معايا يالآه زيدا!  
ادخل للقصر يا المجيد!  
فالزين مثلك محال كاين!  
دخل لثَّرَع وبدا يطل..  
راسويضوي كيف السطل!  
قالت ليه الوصيفة ادخل!  
دخل ولقاهم زاهيين..  
بنت السلطان غي شافتو..  
نادات عليه وسالتو:  
عندك سبسي بحكايتو؟  
قال ليها تاع الوالدين..  
قالت ليه اكمي نشوف؟  
قال ليها يا زينة الحروف..

كفيه أنت بذاك الشفوف..

قبضت منو باليدين..

شافت فيه وقالت ليه..

كون تسمع يا الزين..

واش عجبتك وناخذك؟

بقي لقرع غي يضحك!

رشق ليه وبدا يحك..

وقشور الصلعة طايرين!

صرفت ليه الكرات لويز..

قالت ليه يا العزيز..

اسمع كلامي دير بيه..

اللي قلت ليك أنا شريه..

شري بغلة ولباس زين..

تزين والبس لباس مليح..

وادخل للقصر الفسيح..  
وتكلم بلسان فصيح..  
واخطبني من بابا الحنين..  
رجع لقرع عند التاجر خاه..  
شرا ليه بغلة كيف وصاه..  
وكسوة من دوك الرفاه..  
وسرج من المتمنين..  
ركب لقرع وبدا يصول..  
وبدات الصلعة كتجول..  
دخل للمشور كيقول..  
هذا همّاز الراقدين..  
ما قال كلام ولا سلام  
اعطيني بنتك يا همّام!  
قلبي مهلوك هلكو الغرام..

قال السلطان للواقفين:

ضربو.. ضربو هاد لقرع..

فظهرو خذمو ليه ارفع..

خليوه بيكي ودموعو سايلين..

عظامو بالدق تسلخو!

رجع نخوه و دوخو..

ديك الشاشية يا النخو..

بركة تاع الوالدين؟

شدها بيديه وردها..

ضربها للأرض وحكها..

خاذاها بيديه وعضها..

ما بان ليه برهان كاين!

دارها على راسو غبر!

هو غافل ما جاب خبر!

دارها على راسو غير..  
وهو غافل ما جاب خبر..  
ما بان خيالو ما ظَهَرَ!  
وهو غافل ما جاب خبر!  
حتى لقي شي ناس مجمعين..  
وقف حياهم بالسلام..  
ما بان ليهم غي الوهام!  
هريو يجريو وبعدو..  
لعنو الشيطان وتعوذو..  
صاروا بانخوف يترعدو..  
والناس فيهم متعجبين!  
عاد يقولو هادو الجنون!  
كيف المعمول و أشنو يكون..  
باش نحاربو المخبّعين ؟

لَقْرَعَ رَاه هَوَلُو صَفَا..  
 ضَحِك ضَحِكَات مُرَادِفَةٌ..  
 عَرَفَ الشَّاشِيَّةَ دِ الْخَفَا..  
 وَبَدَا يَتَحَكَّمُ فَالْوَاقِفِينَ..  
 ضَرَبَ وَاحِدَ عَلَى الظَّهْرِ..  
 غَوَّتْ غَوَّتَةٌ تَشَقُّ الْحَجْرَ!  
 طَلَّقَ مَنْو وَمَشَى نَحْوَرٍ..  
 مَدَّ صَبَعُو نَغَزُو فَالْعَيْنَ!  
 لَقْرَعَ رَكَبُو الْعِنَادِ..  
 رَاحَ يَتَهَادَى بَيْنَ الْجُنَادِ..  
 لَقِيَ الْبَوَابَةَ وَاقِفِينَ..  
 دَخَلَ يَدِيهِ بَيْنَاتِهِمْ..  
 هَضَرَ وَاحِدَ ضَرْبُو لِلْفَمِ!  
 تَلَفَتْ غَضْبَانَ طَالَعَ لِيهِ الدَّمُ..

خفق صاحبو ضربو للعين!  
بداو يضربو في بعضهم..  
بدا يضحك وعضهم..  
خضخضهم ورذهم..  
طاحو بالخلعة جامدين!  
خلاههم ودخل للقصر..  
داخل ويغني بالجهر..  
بنت السلطان سمعت الخبر..  
جلست تبكي بالصوت الحنين..  
تبكي وتنادي يا احباب..  
زوجي لقرع فين غاب؟  
كيف المعمول؟ كيف السباب؟  
بغيت نجيبو ما عرفت فين؟  
تبكي وتنادي يا الناس:

هذا قلبو تاع النحاس..

لا راحة وجدت ولا نعاس..

هذا قلبو تاع النحاس!

هدا قتال العاشقين..!

- أين كنت تخفي كل هذا! هل من مزيد؟

-زريد المزيد..!

- حسناً.. حسناً! والآن سأسمعكم قصيدة «العطار»

- على مولانا الكريم..

الله.. الله أ الرجل طالت البركة!

الله.. الله يا المرة (المراة) وكيف نعملو؟

الله.. الله أ راجل بيع بلادك..

ونوض يا العطار عيش اولادك!

ناض العطار باع بلادو..

وقبل ماشي لزعيرو..

بسلامة يا اولادي تبقاو بخير..  
والله يا بابا ويلاقيك الخير..  
داز العطار للمدينة وعمر بألف..  
وبعدها لحق لداك الدوار..  
ونغم دوك النغمات..  
خرجت ليه غي العكوزة!  
يا العطار صباح الخير..  
يا المحنة وصباح الويل!  
واش عندك شي إبرات غلاظ؟  
واش عندك شي حديدة حمرة؟  
صباح لربي يا القفرة وراك عميتي!  
لحق العطار لداك الدوار..  
دوار تاع زعيرات..  
لقاهم شادات السباني..

ولقاهم طاليات الحناني..  
ولقى الشارفات دارو حمام!  
وحدة تحك لوحدة..  
بفردة تاع القرشال!  
ونغم دوك النغمات..  
خرجت ليه غي زروالة..  
محنية جوج قدام..  
لابسة الدفينة والشال..  
تبسمت وضحكت ليه..  
والعطار رشقت ليه!  
الله.. الله أ العطار صباح الخير..  
الله أ لالة صباح الخير..  
العطار مالك غضبان؟  
الله أ لالة ماني غضبان!

واش عندك شي عكّر احمر؟

الله أ لالة وعلاش بغيتيه؟

بغيت نفرقو على البنات..

كل وحدة تحط شوية..

بيديك أ لالة زيدي عزلي!

وخذاتو ورجعت ليه..

أ العطار واش عندك السواك الحار؟

الله أ لالة وعلاش بغيتيه؟

بغيت نفرقو على البنات..

كل وحدة تحط شوية..

ها هما عندي حارّين يلقطو

بيديك أ لالة زيدي عزلي!

وخذاتو ورجعت ليه..

واش عندك شي بخور وجاوي..

باش نجيب الرَّاجل داوي؟

الله أ لالة زيدي خوزيه!

وخذاتو ورجعت ليه..

أ العطار مالك غضبان؟

والله أ لالة ماني غضبان!

يلا كنت عزيزة اعطيني القيطون؟

الله أ لالة وعلاش بغيتيه؟

بغيت نبنيه ونظلل بيه..

بيديك أ لالة زيدي هدميه!

يلا كنت عزيزة اعطيني الكيدار؟

الله أ لالة وعلاش بغيتيه؟

بغيتو نديه نتسوق بيه..

شدي لجامو وزيدي ندهيه..

خذاتو ربطاتو ورجعت ليه..

الله.. الله أ العطار مالك غضبان؟

والله أ لالة ماني غضبان!

يلا كنت عزيزة اعطيني الحرشيش؟

زيدي أ لالة بيديك خوذيه..

يلا كنت عزيزة زيدي الرزة؟

وشدي أ لالة علاش بغيتيه؟

بغيتو يا سيدي نتلمم بيه..

بيديك أ لالة زيدي خوذيه..

خذاتو ورجعت ليه..

يلا كنت عزيزة اعطيني التشمير؟

والتشمير أ لالة علاش بغيتيه؟

بغيتو نشم الريحة فيه..

زيدي أ لالة.. زيدي نصليه!

خذاتو ورجعت ليه..

الله.. الله أ العطار مالك غضبان؟  
 والله أ لالة ماني غضبان!  
 يلا كنت عزيزة اعطيني السروال؟  
 والسروال أ لالة علاش بغيتيه؟  
 بغيتو نشم الريحة فيه..  
 فتحي الدكّة وزيدي نصليه..  
 فتحتُ الدكة وخذاتو ليه!  
 والعطار بقى عريان!!!  
 دخلتُ للدار ورجعت ليه..  
 العطار سير بحالك!  
 راه غدي يخرجو ليك قرانك..  
 ويقادو لبوك ككافك!  
 العطار مسكين قَبْلَ و سار..  
 العطار ماشي عريان!

قرب من الدوار..  
خرجت مراتو طلل عليه..  
بان ليها جاي عريان..  
ويلى.. نوضو.. نوضو!  
بوكم كَشْطُوهُ العديان!  
تلاقاوه اولادو وهو عريان..  
عاود ليئا كيف وقع ليك؟  
الله.. الله أ اولادي سبابي زروالية..  
وسبابي العكر زين الحطّات!  
وسبابي سواكي زين السواكات!  
وسبابي كيداري زين الرجات!  
وسبابي حرشيبي زين النعسات!  
وسبابي قيطوني زين البنيّات!  
وسبابي تشاميري زين الرقات!

وسباني سروالي زين الدكات!

وسباني شدي زين اللويات!

الله.. الله العطار مسكين تفقس ومات..

خلا مراتو وجوج بنيات..

وخلا اولادو ييكيو عليه.

\*\*\*

ودعت زملائي، عزيز وعبد الحفيظ الحياني وعبد السلام الجبلي وعمي الصحراوي ومسعود، فانتقلت للعمل في (الطبيسلة)، وعادوا هم إلى بلدة إكّاون للعثور على مشغل آخر.

عرض علي رحال البقاء والعمل لصالحه، رغم درايته بجبلي بأبجديات الطبيسلة، قال أنني سأتعلم بسرعة، وكذلك حصل فقد تعلمت في وقت قصير سر تحويل سنابل القنب الهندي إلى بودرة الحشيش، ونتيجة لذلك تضاعفت أجرتي عدة مرات.

صحيح أنني لم أجمع المبلغ المطلوب كاملاً، غير أنني تمكنت من الحصول على قدر محترم منه.

عدتُ إلى مدينة فاس، فقصدت حفرة الليدو للتزود ببعض الكتب، ثم حانة «الشمس والبحر» لتبليل عروقي الجافة. بخطى وثيدة دلفت إلى الحانة المنزوية عند آخر الزقاق الضيق. وإلى طاولتي الأثيرة جلست، فطلبتُ زجاجة نبيذ. وبعيون شاخصة جعلتُ أتفرّس الوجوه التي كنت قد ألفت معظمها، والمكان الذي ما برحت أرتاده طيلة سنوات دراستي الجامعية، ولا أنقطع عنه إلا لغياب المال. كانت الحانة عتيقة بشكل كلاسيكي يضارع هيئة انحرافات البحرية. وكانت شباك الصيد، وقبعات البحارة، ولوحات المناظر البحرية المتفردة تزين جنباتها وجدرانها. وكان النذل يرتدون ملابس البحارة. أما السبب وراء ذلك فيعود للملكها الأول، والذي كان

بحارا فرنسيا جاء مع قوافل المستعمرين الأوائل، فاستهوته المدينة وطابت نفسه لعراقها، وقرر أن يفتح فيها نخمارة بحرية بعيداً عن البحر بمئات الكيلومترات!

على مقربة مني لمحت إحدى نبات الحانة وهي تفتش جيوب زبونها، والذي كان قد استسلم لمفعول الخمرة. وما أن وقع بصرها علي حتى غمزت لي بطرف عينها، ولسان حالها يقول: استر ما ستر الله!

أجلتُ ببصري ناحية اليسار فرأيت الأستاذ حمودة برفقة زوجته في مكانه المعتاد. وكان هذا الأخير موظفا متقاعداً أدمن شرب الخمر حد الجنون، وكانت زوجته تصحبه إلى الحانة طيلة الأيام الأولى التي تلي استخلافه لراتب تقاعده الهزيل، وكانت بحضورها تحول بينه وبين تضييع كامل أمواله على الكأس ونبات الليل. وفي سبيل ذلك كانت تتجمع مرارة تواجهها هناك وسط دخان السجائر، وكؤوس الخمر المترعة، والسكرارى!

تركتُ الأستاذ حمودة وحرمه على حالهما واتجهت ببصري ناحية اليمين، فأبصرت إحداهن وهي ترسم شامة فوق شفتها العليا! وعندما رأيتني أرمقها بنظراتي رفعت يدها تلقي التحية، وفي الهواء أرسلت لي قبلة حارة، فاستقبلتها بابتسامة رائقة، ورفعت كأسني

في وجهها عالياً.

وعند الباب كانت أخرى تقبل يد الحارس وتستجديه أن يسمح لها بالدخول، وهي تعلم علم اليقين بأن الزمن قد جار عليها لما رسم التجاعيد على قسماي وجهها، وأنها لم تعد تناسب المقام!

وما اسرعى انبهاي في تلك المرة هو تواجد امرأة جديدة في الحانة. كانت هيأتها تشي بأنها ليست من سلع الحانة، ولا من زيوناتها السابقات. وما زاد من دهشتي هو تناولها لكتاب بين يديها! سررت لرؤية ذلك في الحقيقة، وجعلت أسبر دواخلها بنظراي. لم أهتد إلى شيء، بيد أنني كنت على يقين تام بأنها تعاني هي الأخرى اغترابا ذاتياً من نوع ما.

وسرعان ما اسلسمت لمد بنات العنب الجارف. اغمضت عيني، فرحت أنصت لذبذبات الروح المتدفقة في سراييني، وأقرأ ما خط فوق صفحات فؤادي، وما يجيش به صديري.

هكذا ينقش على الشفاه يا حبيبي..

هكذا يكون الغوص في بحر العيون..

هكذا يصطلي بنار الحاجبين..

هكذا نصمت أثناء اجتيازنا حدائق النهدين..

هكذا يقدر القد المشوق..

هكذا يستنشق عبير الأنفاس المتقطعة..

هكذا تمزج الآهات وتعاقد الأرواح يا حبيبي..

هكذا نموت، وهكذا نحيا..

هكذا يصير الرماد ناراً من جديد..

هكذا نهزم الفناء الحتمي وهكذا يكون الخلود.

كان ذلك صوت نسيمة، صوتها الرقيق العذب كشدو العصافير،  
انبعث إلى من الأمس البعيد!

بسطت ذراعها ودارت حول نفسها كأميرات القصص الرومانسية،  
وظفقت تستقبل حبات المطر بضحكات افتتاحان ونشوة، وهي تقول:

- ما أجمل المطر يا حبيبي.. ما أجمله! تعال

نرقص.. تعال!

انتشلتني من يدي بقوة، واتجهت بي صوب بركة ماء، حتى إذا  
وقفنا قبالها انتزعت يدها من يدي، وأخذت تتهادى وتمايل  
بحركات رشيقة تنسجم مع وقع المطر. وبلهفة طفولية راحت  
تقفز للقبض على الفقاعات التي تتشكل فوق صفحة الماء، وتصرخ:

- ها هي.. لقد أمسكتها!

وببطء شديد كانت تفتح راحة يدها خشية أن تضيع منها الفقاعة!

- أين أنت الآن؟ سألتُ طيفها الذي انتصب أمامي.

ثمّ أضفتُ وقد اغرورقت عيناى بالدموع:

- أين أنت أيتها الراحعة في مهجتي؟ وما الذي فعله

الزمان بك؟ أما تزالين تعشقين الرقص والمطر؟ أم

تراك انطفأت كما انطفأت أنا يوم فراقك؟ لم أشبع

منك يا حبيبتي، ولم أرتو من نبعك الرقراق، ولم

أعود بعد على غيابك، فنذ رحيلك وأنا أبحث عن

شماعة أعلق عليها عقدة خسارتك، ولم أجدها لحدود

اللحظة!

عانقتني الطيف بقوة وخاطبني بصوت بكّي:

- أرجوك سامحني.. سامحني!

فجمجتُ:

- لقد سامحتك يا نسمة الروح لحظة ذهابك، وما

استطعت نسيانك بعد! يا نسمة الروح لقد أحببتك،

وأحبك، وسأحبك ما دام القلب يخفق.  
 أتعلمين ما قاله لي أحد الأصدقاء، وهو يعزيني،  
 قال لي بالحرف الواحد: لقد فُطمت قبل الأوان يا  
 صاح، وستعيش لتموت. فقط استرخ واستمتع بحفلة  
 تأبين ستستمر العمر بأكمله. ليكن الرب في عونك يا  
 صاح! ليكن الرب في عونك!

كلّما تهاطل المطر يا نسمة الروح أرسلت لك مع  
 الرياح آهاتي الحائرة وأشواقي الحارقة، وتخيلتك  
 جالسة خلف نافذة ترشفين من كأس الشوق  
 رشقات متلاحقة، وتراقبين انهماك بنات الغيم.  
 إلى متى سيصمد جدار الصمت؟

إلى متى سأصبر على جفيعتي؟

إنني أحترق.. إنني أختق.

منفيّ أنا من حدائقك الغناء، محروم أنا من وهج نور  
 عينيك. فلا الزمن عاجل جراحي، ولا البعاد هدأ من

لوعتي!

أفتقدك..

أحنّ إليك..

اشتقت إلى همسك البليل..

اشتقت إلى وضاءة روحك..  
 اشتقت إلى طيوب أنفاسك..  
 اشتقت إلى شجوك الأريض..  
 صميت زائف، وحنيني نهر جارف، وخسارتي حقيقة  
 لا غبار عليها.  
 أنت هنا في العروق والمسام..  
 أنت هنا تعتلين عرش قلبي..  
 أنت هنا..  
 بل هنا..  
 لقد دسستك في موضع خفيّ، بين القلب وعظام  
 الصدر، حتى أطمئنّ عليك متى شئت، بعيداً عن  
 همهمات الفضوليين.  
 آه كم اشتقت إلى وجنتيك الورديتين، وشفتيك  
 الناعمتين، وفجر ابتسامتك!  
 آه كم اشتقت إلى نظراتك الطفولية التي تخترق جدار  
 الروح، وتسلل إلى المهجة كما يتسرب نور صباحات  
 الربيع إلى بواطن الأزهار الجبلية، فيوقظها برفق  
 لاحتضان قبلات النحل والفراشات!  
 آه كم اشتقت إلى أن أضمك وأدفن رأسي في

أحضائك، كما كنت أفعل كلها استشعرت البرد أو

الخوف أو الضعف!

- عليّ أن أجد ميلودة غداً.

قلتُ بلسان أثقله السكر، ثم تفقدت المفاتيح في جيبي، ووقفتُ  
أغادر الحانة باتجاه شقّة أحد الأصدقاء القدامى.

فجأة وجدت نفسي يا ميلودة أسبح في الفضاء بكلّ انسيابية!

- ما الذي يحدث معي؟ أين أنا؟ كيف لي أن

أحلّق عالياً كنسر بدون أجنحة؟

تسألُ والحيرة تملك كيانِي!

سموتُ عالياً في السماء، فنَدت من وجهي ابتسامة عريضة،

وأذعنت للرياح التي كانت تداعب جسدي، ثم شيئاً فشيئاً

طفقتُ أتخلّص من شعور الخوف والريبة الذي اعتراني بادئ

الأمر، فغمغمتُ قائلاً بنبرة تراوحت بين الحسرة والتمني:

- طوبى للطيور بهذه المنة العظيمة!

أغمضتُ عيني، وقد انتابت فؤادي نشوة عارمة، فبسطت ذراعي

معا وانصعت للرياح تاركا لها القرار لتحملني على بساطها أني

تشاء، غير أن رائحة كريهة أرغمتني على فتح عيني ومحاولة اكتشاف مبعثها. وكم ركبني الذهول وأنا أرمق دخانا كثيفا متصاعدا بدون انقطاع! وددت الاقتراب منه أكثر فطاوعتني مرونة جسمي. وما عاينت المنظر الكئيب جيداً حتى صحت قائلاً، وقد استحال لون وجهي إلى امتقاع مفرع:

- إنها غابات شاسعة على مد البصر تحترق! أين هم رجال الإطفاء؟

جعلتُ أعين بقلب خافق الحيوانات على تنوعها وهي تحترق، أو تحاول جاهدة الفرار. منظرها أضرني، فدمدمت قائلاً، والحيرة الشديدة تمزق نياط قلبي:

- يا إلهي ما الذي يجري؟ لا أثر للبشر إطلاقاً!  
أين أنا؟ الأرض هي الأرض التي أعرف،  
والسما هي السماء التي أعرف، فما الذي يحدث؟

واصلتُ التّحليق بغير هدى، واستمرت الرياح في حملي، فأنا من أوكلتها أمري طواعية، وهي استجابت فأخذتني بعيداً، حتى بلغت بي أرضاً قاحلة، فقلت وأنا أشيح بوجهي:

- ما هذه البيئة الكئيبة؟ أين الخضرة والزهور؟

أين الوديان والأنهار؟ أين الشلالات والينابيع؟  
أين البشر؟

انقبض صدري وأنا أشاهد اللوحة القائمة، والتي ارتأت الطبيعة الغاضبة رسمها بألوان كالحة شاحبة، فانداحت من أعماقي آهات أسيفة، إلا أنني واصلت التحليق، وقد تكدر صفو نفسي، وما عدت أهفو لمواصلته.

في الأفق لاحت أطلال مدينة، فدنوت منها قليلاً حتى نتضح لي الرؤية وتصفو، لكن سرعان ما اعترتني سيماء الخيبة مجدداً. لقد رأيت سيارات محترقة، ومنازل مهجورة، كانت قد كسرت نوافذها وأبوابها، والعديد من الجثث! نعم إن الجثث كانت تنتشر أينما وليت وجهي، ولا حضور كان هنالك إلا للهوت.

- لقد صار الابتعاد عن هذه الدائرة الخبيثة هو القرار الصائب! هكذا خاطبت نفسي محاولاً  
ثنيها عن الاستمرار بالتواجد في ذلك المستنقع  
الأسن.

ولما عزمْتُ على الفرار ومواصلة التحليق، وقع بصري على يافطة، كانت بقرب إحدى الجثث، وقد كتب عليها بخط عريض: «نصيبتنا من الماء حق ثابت».

فتابعت التحليق حتى بلغت أحد الشطآن. وما أشبع الحال الذي وجدته عليه! فقد كانت تكسو مياهه طبقة سوداء من أثر التلوث، وملايين الأجسام البلاستيكية كانت تطفو على سطحه، جنباً إلى جنب الأسماك النافقة، وعلى رماله انتشرت مراكب صيد محطمة، ولا أثر للبشر إطلاقاً!

هيئة فاض لرؤيتها فؤادي حسرة، وأرمضت قذارتها قواي، فتبدل الفرحة الأول بالمنة العظيمة إلى ترح شنيع.

خلقت الشاطئ ومنظره المقزز وراء ظهري، ومع استمراري بالتحليق اجتاحني إحساس رهيب بالعطش، فتقهقرت نزولاً من جديد، وأنشأت أمعن النظر بحثاً عن مصدر ماء يروي عطشي، لكنني ما عثرت إلا على شبح الموت الباسط ظلاله في كل مكان!

وبجأة أخذ جسدي يفقد قدرته على التحليق، وطفقت أتهاوى تدريجياً، فأنحدرت حتى ارتطمت أرضاً. وبينما أنا على حالي أئن ألماً، ظهر من بين الأعشاب الميتة طفل صغير عاري الجسد، حافي القدمين، ففرح قلبي لمراه، وصحت به قائلاً:

- مرحباً.. مرحباً.. وأخيراً وجدت إنساناً!

حاولت الاعتدال في مجلسي، لكنني ما قويت.

ثم أردفت مستفسراً إياه:

- أين هما والداك يا صغيري؟ وهل أنت وحدك  
في هذا المكان المقفر؟

لكن الصغير واصل تجاهل أسئلتني، فتقدم نحوي صامتاً، حتى إذا دنا مني رشقني بنظرات فيها قسوة وعتاب، ثم تناول غصنا مكسوراً، وعلى الأرض كتب: الأناية والجشع هما سر النجاة. لحظتها سطع شعاع قوي، واكبته زجرة أصوات شنيعة، فاستحال كل شيء أمام ناظري إلى فراغ. وقسر إرادتي أطبقت جفني اتقاء شر الوميض الوهاج.

وجدتُ جسدي مربوطاً بإحكام إلى كرسي، وأمامي انتصبت شاشة عرض كبيرة، تملك التي توجد في دور السينما! ولولا الضوء المنبعث من جهاز العرض المنبث خلفه، لسبح المكان في ظلام دامس، وقد كان بالسرداب أشبه.

- يا إلهي إنني أغرق في الظلام.. أين أنا!

دمدمتُ وقد تقبض وجهي، وأطل من عيني هلع لا محدود، واهتاجت لواعجي. ولم ألبث طويلاً حتى أنشأت أسمع وقع أقدام تسعى على أرضية الغرفة بخطى متثاقلة، فحاولت الاستدارة للتحقق

من هوية القادم، غير أن وثاقي المحكم حال بيني وبين مبتغاي. فإذا بوقع الخطى يتواصل، حتى إذا دنا صاحب الخطوات المتثاقلة من مصدر الضوء توقف أمامه، فانعكست صورة ظله على شاشة العرض. إذ ذاك تلجلج لساني، فقلت مرتعشا وقد استغلق عليّ الأمر:

- أين أنا.. ومن تكون أنت؟

لكنّ صاحب الظل لم يفه بكلمة، بل آثر سحب الكرسي القائم إلى جانب الجهاز، مصدر الضوء، فجلس وشغله.

وعلى الشاشة العريضة البيضاء انعكست صور لعدة جنود، كانوا في محطة قطار يودعون أحبهم قبل الالتحاق بساحة المعركة. فهناك على الرصيف جندي يودع حبيبته بقبلة طويلة تحكي لوعة العشق المهدد بالغياب. وهناك من نافذة إحدى العربات تدلى جندي بجسده لاقتناص قبلة من عشيقته هو الآخر. وهناك على جنبات السكة الحديدية عاتق جندي زوجته وابنه الوحيد. سُمع أزيز محرك القطار، فأعقبه تصاعد الدخان من مدخنته، فتحرك يدب كحلزون، ثم كسلحفاة، ثم كحية.

تلك شابة في سن الزهور تحاول يأساً اللحاق بالقطار الذي انطلق، وفي يدها وردة حمراء. وذلك جندي يقبل صليبه، ويدسه تحت

ثيابه. وتلك أم بسطت يداها تدعو لابنها أن يعود سالمًا. وأولئك نسوة جهرن بالبكاء على أحبتهن.

وما إن تحرك القطار حتى راح الرجال يتدلون من نوافذه، وبأياديهم يلوحون مودعين. بينما دبت الفوضى على جنبات الرصيف، وقد تسبب فيها سيدات حاولن الجري والالتصاق بجنبات القطار. وما هي إلا لحظات حتى ابتعد القطار في مسيره، وخفت ديب الأرجل على الرصيف. فدوت صافرات الإنذار بصوت منكر، وسبق النسوة والأطفال إلى الملاجئ زمراً.

أما داخل المقطورات، فقد انحسر التدافع وتناقص التزاحم عند نوافذ القطار. وبعيون ذابلة، وصدور مرتجفة أخذ الجنود يتبادلون نظرات أسيفة. فتناثر دخان السجائر في السماء سحبا بيضاء، ونزلت دمعة، فدمعتان، فانهمرت الدموع من المآقي، فأترعت أبواب الخوف على مصراعها. وغدت الحماسة رهبة خانقة. فساد جو من اليقين بعدم العودة. ولما طغى هذا الإحساس وتراخت خيوط القلوب، طوق بعضهم بعضاً في حنو ورتاء. فأخرجت الصور من الجيوب الدافئة، وعزف لحن الذهاب الأخير.

وبعيداً عن الشعارات الرنانة والانتصارات الوهمية الزائفة، أطل من شاشة العرض طيف الحرب بوجه بشع ذميم. فإذا بالأشلاء

البشرية تغزو ساحة المعركة. وإذا بالدم المسفوك قد تناثر في كل مكان. وإذا بالغبان تحلق وتتعق في الفضاء. وإذا بقبعات الجنود قد ملأت الجنبات. وإذا بدبابات محترقة، وطائرات محطمة، ودمار، ودمار، ودمار...

جنديّ يبكي بكاء شديداً، فيصرخ بأعلى صوته وهو يحاول عبثاً إيقاظ زميل له. وآخر حمل على كتفه صديقه الجريح، فتخطى جميع العقبات حتى بلغ به مركز الإغاثة، غير أنه أوصله جثة هامدة.

وها هو قائد عسكري رفيع المستوى، تزدان كتفه بالنجوم ومن صدره ثندلي عشرات الميداليات والأوسمة، يصطنع الخشوع والتأثر. مر تابوت بقربه، فرفع تحيته الزائفة أمام أعين أم ثكلي، وأرملة تائهة، وأيتام حول التابوت يلعبون غير مدركين بأن الذي في النعش هو ما تبقى من والدهم الذي ذهب شاباً وعاد أشلاء!

وبعد مراسيم الدفن اتجه القائد العسكري، يتبختر في زيه، ومن معه إلى تفقد المستشفى الميداني. وبنظرات باردة استقبلهم مئات الجنود الجرحى، الممدد بعضهم على الأسرة، والجالس بعضهم الآخر على الكراسي. فرفع لهم عالياً شارة النصر، فرفعوا في وجهه عكازاتهم وأطرافهم المبتورة، وكأن بهم يقولون: لقد ضربت شمك السوداء أعناقنا. لقد اكتشفنا لعبة الحرب القدرة.

لحظتها سطع شعاع قوي، واكبته زجرة أصوات شنيعة،  
فاستحال كل شيء أمام ناظري إلى فراغ. وقسر إرادتي أطبقت  
جفني اتقاء شر الوميض الوهاج.

كان المكان أشبه بلوحة طبيعية، وقد شكلتها أنامل رسام ماهر، في  
انتظام وتناسق يسر الناظرين. في الوسط انتصب نهر، على هيئة حية  
عظيمة، شطر المشهد نصفين. فأما على ضفته اليمنى، فقد انتشرت  
صنوف شتى من الأزهار تنثر عبقها فواحا في الأرجاء. وأما على  
الضفة اليسرى، فقد انبسطت الأرض واستوت، فأخرجت من  
جوفها أشجارا تأوي إليها الطيور مغردة مزهوة بألوان ريشها الذي  
يسلب الأفتدة.

مفتونا بما تراه عيناى يا ميلودة مشيت بخطى وئيدة ميتة، حتى  
إذا بلغت شجرة سنديان باسقة، أبصرت جماعة من الناس تحت  
فيئها الوارف يتلقون ككؤوس اصطفت على حافة مائدة. فسعيت  
نحوهم وجلا خائفاً أشد الخوف. لكنني ما كدت أدنو من  
مجلسهم حتى زال خوفي وانجلي. فإذا بي ألقى التحية، وإذا بهم  
عني معرضون!

كانوا رجالاً ونساء قد توشحوا باللبسة بيضاء، في أعمار مختلفة. وكان

الواحد منهم يتكلم والبقية سكوت يرمقون المتكلم بنظراتهم لحظة، ويجلقون في الفراغ لحظة أخرى، حتى إذا انتهى من بوحه وصمت صمماً مطبقاً، تناول الجالس بقربه الكلمة وأنشأ يفضي بسرّه ويبيث نوازعه.

أفشيتُ التحية كرة ثانية، اعتقاداً مني أنهم لم يسمعوا قولي في المرة الأولى. عندها رفع فرد من الجماعة رأسه، وأوماً لي أن اجلس، فأذعنت وجلست حيث يجلسون، ومع مرور اللحظات اعتدلت في مكانه حتى استقر بي المقام واحداً منهم.

قال الأول:

- كل ما ندمت عليه حقاً هو أنني أخذت بحياتي إلى المسار الخاطيء، فألقيت بنفسي في براثن الحقد، والسعي للانتقام من الأشخاص الذين ساقتهم الأقدار ليكونوا عراقيلاً في طريقي. ولم كان من الأليق تجاوزهم، وعدم الاكتراث لما يصنعون!

تهدت سيّدة، وقالت بلهجة يساورها التأمّل:

- وكم ندمت على السوء الذي ألحقته بزوجي، والد أبنائي! لقد كان المسكين يكد ليل نهار

لجلب ما نحتاج إليه، وقد قضى عمره كاملاً  
راكضاً لاهثاً وراء لقمة العيش، وما يحفظ  
كرامتنا، غير أنني بالمقابل قضيت عمري في  
أذيته بكل أنواع السحر والشعوذة، امثالاً  
لتوجيهات جاراتي وصديقاتي.

وبصوت أقرب إلى الاختناق منه إلى الهمس، أردفت قائلةً:

- يا ليتني ما فعلت!

وبرنة أودعها كل ما في قلبه من ترح قال آخر:

- أما أنا فقد كنت موظفاً مشرفاً عاماً على شؤون  
الإدارة المركزية، وكان راتي الشهري محترماً  
جداً. لكن جسعي فاق كل الحدود، فسعيت  
جاهداً لتحصيل المزيد من المال. فتارة كنت  
أتلقي الرشاوي من المرتفقين، وتارة أخرى  
كنت أزور بعض الوثائق وأغير المواعيد، فأقدم  
موعد من أعطاني رشوة، وألغي أو أقوم بتأخير  
موعد من لم يفعل.

أحني رأسه، واستطرد قائلاً:

- ثم ماذا جنيت من كل هذا؟

أمّا الرجل الذي كان يجلس بقربه، فقد اصطبغ وجهه بالصفرة  
وقال:

- خلال تواجدي هناك، كنت جندياً. أديت  
القسم لحماية وطني والسهرة على أمنه، بيد أنني  
كنت أول الخائنين عند أول مفترق الطرق.  
لقد خنت وطني، وسجلت في كتب التاريخ مع  
الخونة والجواسيس للأسف الشديد.

وبكثير من الحزن والأسى نطقت سيدة، فقالت:

- وأنا امرأة شهدت الزور.

وجمت لحظة، فأضافت متحسرة:

- نعم لقد شهدت زوراً في المحكمة، وقلت بأنني  
رأيت زوجة أخي وهي برفقة شخص غريب.  
لقد أعمتني الغيرة، فقد كانت آية في الحسن  
والجمال، ومحبوبة من قبل الجميع. عمى الحقد  
بصيرتي، فأقسمت على كتاب الله بأنني رأيتها  
في أحضان عشيقها. لقد كنت السبب الأول

والأخير وراء تطليقها، ودخولها السجن،  
وتشريد أبناءها. ويا ليتني ما فعلت!

صمت الجميع، فاضطرب من وقع عليه الدور، وقال:

- منّ الله عليّ بالثراء الفاحش. وكنت صاحب  
معامل، وأراض زراعية، وبساتين، وحقول،  
وقطعان من المواشي والأبقار. جبت الدنيا  
طولا وعرضا، ونسجت علاقات مكنتني من  
الإقدام على أي فعل دون المبالاة بالعواقب.  
لقد ملكت المال ومعه فرضت سيطرتي  
وبسطتها، لكن ما نفع هذا وغيره إذا كنت ما  
احترمت حق السائل والمحتاج!

أطرق الرجل، ثم استتلى يقول:

- لم أشغل بالي يوماً بأحوال المحتاجين، ولم أجهد  
نفسي أبداً بالاكتراث إلى عوزهم وفاقتهم. لقد  
خسرت خسارة كبيرة يا حسرتي!

طأطأ الرجل الموالي رأسه، فنطق وقد توهمت دروب قلبه  
المضطرب:

- تعرضت وشريكي في التجارة إلى حادث سير مروع، فمات هو ونجوت بأعجوبة. امتثلت لنفسي الأمانة بالسوء، ولرأي أحد الأقرباء، فخفضت لهما معا عن طيب خاطر، وأنكرت حق زوجة شريكي، ومعه حق أبنائه الصغار. لقد أكلت مال اليتيم بكل برودة، وها أنا اليوم نادم على ما اقترفت يداي. لكن ما عساه الندم يفيد؟

صمت التاجر، فقال آخر بنبرة غضب واستياء:

- وأنا مسؤول عن إفساد عقول مئات الشباب. لقد أفسدتهم بالمخدرات التي كنت أتاجر بها في أبواب المدارس والثانويات، عبر شبكة من المروجين ممن كانوا يدرسون هناك أيضاً. لقد اشتغلوا تحت إمرتي مقابل منحهم جرعاتهم من المخدرات. فكان دورهم يتراوح بين البيع، وتعليم زملائهم كيفية استخدام المخدرات، والتأكيد على الحاجة إليها لتجاوز نتائج الفشل الدراسي والمشاكل الأسرية. لقد بسطت شبكتي وأذرعني في كل مكان، واصطدت

في مستنقعات البؤس والفقر. وما الذي جنيته  
بقذارتي!

غرق تاجر المخدرات في دموعه، فصاحت من كانت بجانبه وقد  
استولت عليها حيرة شديدة:

- وأنا فضّلت القليل من الراحة الزائفة، والتي  
حصلت عليها من خلال تجاهل الاعتناء بوالدي  
في أكثر لحظات عمره حاجة إلي. لقد كان على  
فراش الموت، وبدل أن أعنتي به، كنت أترك  
شأنه لأختي حتى تقوم بذلك لوحدها. فقامت  
بذلك وتواجدت خلال معظم الوقت. بينما  
تواريت عن الأنظار في غير ما مرة. لقد فازت  
أختي ونجحت في الاختبار، أما أنا...

وبعدها صدح صوت يقول أشدّ الارتياح:

- وأنا يا إخوتي في الخطيئة قتلت نفساً بغير حق،  
ففي لحظة غضب ورجسية زائفة كريمة أردت  
زميلي، وفقدت إنسانيتي للأبد، فعشت حياتي  
ذليلاً داخل سجنين، سجن من الخرسانة والحديد  
بأسوار عالية وأبواب صلبة وحراسة مشددة،

وسجن ذاتي مستمر لحدود اللحظة. فانقضت  
مدة الأول، وما انقضت مدة الثاني.

فقال الآخر معترفاً، وقد صمّه الأسف، وتلحد بلحاف الذنب:

- أما أنا فكنت نصاباً أسلب الناس أشياءهم  
بالحيلة والغدر. وتحقيقاً لهذه الغاية، فقد  
تقمصت عديد الأدوار للإيقاع بالضحايا  
حسب ما تقضيه المهمة، فلعبت دور التاجر،  
ورجل الأعمال، ورجل السياسة، والواعظ،  
وغيرها الكثير من الأدوار.

كفّ وقد لاحت على وجهه حسرة لاذعة، فأتابع قائلاً:  
- لم أهتم يوماً بالوسيلة، وكل ما عملت لأجله هو  
تحقيق الغاية!

فتحدث الأخير، وقد جمدت عيناه:

- وأنا كرسّت حياتي لطلب الم لذات والشهوات،  
فلم تتجاوز طموحاتي يوماً نزواتي اللامتناهية.  
ولقد خسرت في طريقي هذا المال، والأهل،  
والأصدقاء، والاحترام، والتقدير، والكرامة،

والإنسانية. خسرت ولم أربح شيئاً، فكلمنا قلت  
هذا آخر الطريق، إلا وشققت لنفسى منعرجات  
ودهايلز أخرى متفرعة إلى عدة ردوب، حتى  
انتهت رحلتى على نحو بأس.

- وأنت؟

قال أحدهم، فصوب الجميع نظره باتجاهى، وطفقوا ينظرون إلى.

- أنا!

قلت متلجلجا، وأنا أحاول الوقوف. فابتعدت عنهم قليلاً بخطى  
حذرة، ثم أطلقت قدماي للريج.

لحظتها سطع شعاع قوي، واكتبته زجرة أصوات شنيعة، فاستحال  
كل شيء أمام ناظرى إلى فراغ. وقسر إرادتى أطبقت جفنى اتقاء  
شر الوميض الوهاج.

- محكمة!

صاح حاجب المحكمة إيذانا بدخول رئيسها، فوقف جميع من فى  
القاعة، بدون استثناء، احتراماً للرجل الذى دخل فى زي القضاة،  
وقد ولجها وحيداً دون مساعديه ومستشاريه! حتى إذا انتصب  
أمام كرسيه الضخم الفخم المطل على القاعة ومن فيها، أشار لنا

بيده أن اجلسوا، فجلس وجلسنا من بعده.

حملت في الحضور الذي تغص به القاعة، فلاحظت باستغراب أنني الرجل الوحيد في القاعة إذا ما تم استثناء القاضي والحاجب! لقد كانت المحكمة تغص فقط بالنساء، وبأعمار مختلفة!

حاولت أن أثير بعيني على هيئة الدفاع، فلم أر غير الجالسات، وكل واحدة منهن تنتظر دورها بشغف واضح. لحظتها تخنخ القاضي معدلاً نبرات صوته، فنطق بصوت جهوري:

- بسم الله الرحمن الرحيم..

كفّ ثانية، ثم استتلى:

- كما لا يخفى عليكم، فالمحكمة تلتئم اليوم بهدف الإنصات لكل واحدة منكن، ومعرفة شكواها. وستمنح فرصة الحديث للجميع، ولا تقبل المقاطعة أو التعليق على أي قول، كما لا تقبل المقدمات. وحق التعبير مكفول لصاحبه ما دامت تلتزم بالقانون. ستسجل الشكايات، وسيبث فيها، وستتصرفون لاحقاً على قرارات المحكمة وحكمها النهائي.

رفعت النسوة أيديهن، فأشار القاضي لواحدة، فتقدمت غير هيابة. ولجت القفص الخشبي المخصص للشخص المدان. فصاح بها القاضي قائلاً:

- اذكري رقم ملفك وشكواك يا سيديتي؟

ومن فورها ردت السيدة الماثلة في القفص:

- رقم ملفي يا سيدي القاضي هو 50، وقد جئت

أشكو بوالدي الذي أوقف كل أملاكه باسم إخوتنا، فتركني وأخواتي بدون إرث يرتقب.

- وما حجته وراء الذي اقترفه؟ قال القاضي مستفسراً.

- حجته أنه لا يريد لثروته أن يستفيد منها أزواجنا الغرباء!

- حتى وإن كانوا كذلك حسب تقديره، فأبناؤك وأبناء أخواتك ليسوا بغرباء عنه، بل هم من صلبه ودمه.

...

- وهل عندك إضافة تذكر قبل غلق الملف؟

- لا. أودّ أن يعلم والدي بأنني أنا من شكته

للمحكمة .

- لك ما أردت، فاطمئني .

عادت المشتكية الأولى إلى مقعدها، فسجل القاضي ملاحظاته حتى تضاف إلى ملفها لاحقاً، ثم قال، وهو يشير إلى طفلة صغيرة:

- تفضلي يا بنيتي!

فوقفتِ طفلة في العاشرة تقريباً، ووقفت بجانبها امرأة.

- لم ترافقينها؟ إنك تخالفين قوانين المحكمة!

فأجابت السيدة بنبرة هادئة:

- أرافقها يا سيدي القاضي لأنها لا تتكلم .

- هل هي بكاء؟

- نعم .

- وهل أنت والدتها؟

- نعم .

فقال القاضي بلهجة رصينة:

- هذه حالة خاصة، وعليه سوف يسمح لك

بالكلام عوضاً عنها، فما هو رقم ملفها؟

- وما هي شكواها؟

فجعلت الفتاة تصدر أصواتاً غير مفهومة، تتم عن أسي كبير  
وغبن داخلي، وهي تستعين بحركات من يديها.

- ماذا تقول ابنتك؟

- تقول بأنها جاءت تشكوك والدها الذي تخلى  
عنها.

- وكيف تخلى عنها؟

- تخلى عنها لأنها لا تتكلم، وقد تبرأ منها، ولطالما  
حسبها لعنة لحقت به جراء ذنب ربما يكون قد  
ارتكبه.

فقال القاضي بامتعاض:

- لا أرى ذنباً أكبر من تخليه عن ابنته!

- ...

- وأين هو الآن؟

هتفت والدة الصغيرة، وقد امتلأ قلبها حسرة وألماً:

- تزوّج من امرأة أخرى، وله الآن أبناء آخرون،  
وحياة أخرى.

- وأنت؟ هل طلقك أم ماذا؟

فردت السيدة بضيق:

- لم يطلقني، ولكنه طردني من البيت  
وابنتي.

فانتفض القاضي قائلاً:

- هذا يحيلنا إلى شكائتين إذن، شكوى  
ابنتك وشكواك؟ ما هو رقم الملف من  
فضلك؟

- 10.

- سيتم تسجيل شكائتين. هل لديك ما  
تضيفينه إلى الملف قبل غلقه؟

ردت السيدة بفتور:

- لا سيدي القاضي.

- فلتفضل السيدة التي تليها!

صاح القاضي، وهو يتجه ببصره شطر الجالسات على يمينه، فاقتربت  
امرأة تجاوزت الأربعين بقليل.

- ما هو رقم ملفك؟ وما شكواك؟
- فأجبت السيدة، وقد تقبّضت نفسها ساعة مثلت في القفص:
- رقم ملفي 45، وقد أتميت أشكو عنف المجتمع ونظرته القاسية.
- هل قلت المجتمع!
- فنبرت بجدّة:

- نعم يا سيدي القاضي.
- وما الذي فعله المجتمع بك لو سمحت يا سيدتي؟
- لا شيء غير أنه ما ينفك يحاسبني في كل ثانية عن كوني لم أحصل على زوج بعد.
- وبلوعة أكلت:

- لقد سمّت نظرات اتهامهم. لقد ذقت ذرعا
- بعبارات الشفقة التي أسمعها في كل مكان.
- وكيف لنا أن نحاسب المجتمع؟
- للمحكمة طرقها الخاصة كما هو معروف عنها،
- ولذلك جئناها من كل مكان يا سيدي القاضي.
- كذلك هو الأمر. أعدك أن المحكمة ستحاول

- جاهدة إنصافك. هل عندك ما تضيفينه؟
- أعتقد أنني قلت ما جئت من أجله. قالت
- السيدة وقد غشيها إحساس من رضى.
- لتتقدم السيدة الموالية إذن.
- فأقبلت سيدة تضع غطاء على وجهها! توجهت صوب مكان
- جلوس القاضي، فأمرها قائلاً:
- أرجو أن تفضلي بالمثل في القفص الخشبي، كما
- تنص على ذلك قوانين المحكمة وأعرافها.
- عندي طلب بسيط من المحكمة الموقرة؟ قالت
- السيدة بنبرة استجداء.
- وما هو؟
- أن أتكلم لك مباشرة، فأنا أتخفظ عن قول أمور
- خاصة أمام جمهور المحكمة.
- أطرق القاضي لحظة، ثم قال:
- من المتعارف عليه أن تجهر المشتكية
- بشكواها. ولكن إن أنت فضّلت
- الحديث للقاضي بشكل خاص، منحتك
- المحكمة ذلك من باب التسهيل لا غير.

فشكرت السيدة القاضي ودنت منه. فهمست في أذنه:

... -

ماذا تقولين!

... -

هل أنت متأكدة من هذا الأمر؟

... -

يا له من زوج سافل حقير! ذكريني برقم

ملفك لو سمحت؟

37. قالت السيدة بصوت مسموع.

وهل عندك ما تضيفينه؟

لا سيادة القاضي.

قالت السيدة، فعادت أدراجها، غير أنّ حديثها المبهم قد قطع حالة الهدوء التي كانت عليها قاعة المحكمة. فصاح القاضي:

- هدوء من فضلكم! لتتقدم السيدة الموالية،

رقم الملف والشكوى؟

استمرت السيدات بتقديم الشكاوى الواحدة تلو الأخرى، والقاضي ينصت، ويدون ملاحظاته، فيتأكد من معلوماتهم الشخصية، ويطلب منهن قول كل شيء بدون تردد لمساعدة المحكمة على

الوصول إلى الحكم النهائي الذي ينصفهن جميعاً. وما إن انتهى من ذلك، حتى أعلن فسح المجال للهداولة.

أعيد انعقاد الجلسة من جديد، وبدأ النطق بالأحكام، فتعالت الزغاريد داخل قاعة المحكمة مدوية، وتعانقت النسوة، وصفقن، وشكرن المحكمة والقاضي على إنصافهن وحكمه العادل الرزين. فانسحب القاضي مخلفا وراءه ضجيجا في القاعة، وحالة من الفرح والارتياح العارمين. لحظتها وقفت وهممت بترك القاعة.

وأثناء خروجي المحكمة، رأيت ورقة كبيرة كتب عليها بخط أحمر واضح: إعلان هام

فقصدها لقراءة ما كتب عليها، وكم صدمت لما قرأت: «كل الأحكام الصادرة عن المحكمة لا تطبق»!

لحظتها سطع شعاع قوي، واكبته زججة أصوات شنيعة، فاستحال كل شيء أمام ناظري إلى فراغ. وقسر إرادتي أطبقت جفني اتقاء شر الوميض الوهاج.

أجلتُ ببصري أستقصي معالم المكان، وقد أزعجتني الرائحة النتنة المنبعثة من أركانه، والرطوبة التي تغشاه، لقد كان سجننا بالقلعة أشبه!

التفتُ يميناَ فشمالا، فإذا بي أجد نفسي محاطاً بنفر من الرجال في مثل سني، وقد كنا جميعاً على هيئة ماثلة، نرتدي لباسا صوفيا قصيرا الأكمال!

عند المقدمة لمحت رجلا يسعى، ويده طوق من المفاتيح الحديدية الكبيرة الحجم، فعلمت أنه السجنان، وتساءلت في ضيق شديد:

- أين أنا يا إلهي الرحيم؟

وما هي إلا لحظات نتصرّم حتى تناول السجنان مفتاحا من الطوق، وأنشأ يفتح باب إحدى الزنانات، ثم خاطبنا متأثراً:

- أودّكم أن تعلموا علم اليقين بأن حيي للرجل هو ما دفعني لمساعدتكم.. حيي الشديد له ولا شيء آخر.

هكذا صاح بنا السجنان قبل أن يعود أدراجه بضع خطوات، ويتخذ لنفسه مكانا على مقربة من باب الزنانة.

وما ولجنا باب الغرفة القدرة المتداعية الأركان، وخطونا خطواتنا الأولى على أرضيتها المتسخة حتى وقع بصرنا على رجل بلباس مهلهل ممزق، في السبعين من عمره تقريبا، كان الصلع قد ذهب بمعظم شعره فغدا منظره قريبا للبساطة. قصير القامة كان، بدين

الجثة، بوجه دائري كبير، ولحية كثة، وأنف بارز أفتس، وعينان  
منتفختان يشع لمعان النباهة والذكاء والحكمة منهما.

- تسرني رؤيتكم. قال الرجل المسن بصوت  
رزين طافح بالوقار.

كف لحظة، وأردف بالنبرة عينها:

- لم أكن أتوقع أن يسمح لي برؤيتكم قبيل  
تنفيذ حكم الإعدام.

بلغت كلمة الإعدام إلى مسمعي، فارتعت كل الارتعاع!

ثم دمدم صوت متهدج، قطع ما ارتد إلى دواخلي من مشاعر  
منفرة:

- إنه السجن.

- ياله من رجل! منذ أن جيء بي إلى هذا

السجن وهو يزورني. ولكم أن تخيلوا كم

هو حزين من أجلي!

- كلنا كذلك..

غمغم صوت أجش. قبل أن يرتمي معظم الواقفين بجاني في  
أحضان الشيخ، والدموع تنهمر من مآقيهم، وسط دهشتي وذهولي!

بلطف حاول الشيخ ثني من كان يبكي عن البكاء، قبل أن يعتدل في مجلسه وينطق بصوت جهوري:

- لا تبكوا ولا تنزعجوا! ربما كان الموت شيئاً مستحسنًا، فإما أن يكون فراغاً، وإما أن يكون ارتحالاً نحو مكان آخر.

وبلهجة هادئة استتلى:

- فإذا حدث وكان فراغاً، فسيغدو عندها الموت مكسباً وغنيمة. وفي حال كان انتقالاً صوب مكان آخر، حيث يعيش الموتي، سيكون كذلك أمراً مفيداً، إذ أنني سأجد الفرصة حينها لإكمال بحثي عن المعرفة الحقيقية، والمعرفة الزائفة. هناك، كما فعلت هنا، سأواصل رحلة استجوابي للرجال العظماء من الزمن الماضي للكشف عن الحكيم، ومن يدعي ذلك فقط. لذا لا تسمحو لموتي أن يحزن قلوبكم، فالرجل الصالح لا يصيبه الشر، سواء كان ذلك إبان حياته

أو بعد موته.

صمت الرجل المسن ردحا من الزمن، وهو يتفرس الوجوه التي امتلأت بها جنبات الزنانة، فواصل حديثه بارتياح قائلاً:

- إنَّ موعد الرَّحيل قد أزف، وعليه يتختم  
على كل منا أن يسلك دربه الخاص..  
أنتم للحياة..  
وأنا للموت..  
والله وحده من يعلم أيهما أحسن؟

أدخل السجن يده دون جسده، ونقر على الباب نقرا خفيفاً  
معلنًا نهاية الزيارة، ولما قفلنا خارجين صاح أحد الشباب منتحبا  
والدموع تغالبه:

- لقد علمتهم فوق طاقتهم على التّعلم،  
وهكذا حكموا عليك بشرب السم..  
فويل لرجل سبق عقله زمانه..  
ويل لرجل سبق عقله زمانه..  
ويل لرجل سبق عقله زمانه..

لحظتها سطع شعاع قوي، واكبته زجرة أصوات شنيعة، فاستحال  
كل شيء أمام ناظري إلى فراغ. وقسر إرادتي أطبقت جفني اتقاء

شرّ الوميض الوهاج يا ميلودة.

- هذا انعكاس ما تقرأه على دواخلك. أجابتني  
ميلودة بهدوء تام.

!! -

- هل يكون هذا ممكناً؟  
- قطعاً هو ارتداد وانعكاس.

!! -

- هل باستطاعتي أن أسألك عن رأيك في  
الانتخابات الجارية أطوارها حالياً يا فوزي؟  
- الانتخابات!

- أجل!

توقفتُ قليلاً ألمم شتات أفكاري، ثم قلتُ لها:

- اسمحي لي أن أتقاسم معك رأي أحد  
الفلاسفة العظماء.

- تفضل!

- يقول هذا الأخير: إنّ السلوك الإنساني  
يجري من منابع ثلاثة رئيسية وهي الرغبة،  
والعاطفة، والمعرفة. فأما الرغبة والشهوة

والباعث فأمر واحد. وأما العاطفة والروح والطموح والشجاعة فأمر واحد، وأما المعرفة والفكر والذكاء والعقل فأمر واحد. يؤكد هذا الأخير على أن الرغبة خزان يتفجر حيوية وخصوصاً في الناحية الجنسية. وأن العاطفة مكانها في القلب، في قوة ومسرى الدم، بحيث أنها الدوي الأساسي للتجربة والرغبة. وأن المعرفة مكانها في الرأس وهي عين الرغبة وبصرها، ويمكن أن تصحح مرشد الروح وهاديها.

هذه الصفات والقوى موجودة كلها في كل الرجال، ولكن بدرجات مختلفة.

فبعض الرجال ليسوا سوى صورة مجسدة للرغبة، بأرواح متململة محبة للكسب، منهمكة في المنافسة والنزاع المادي، تحرقها شهوة الترف والبدخ والمظهر، وتعتبر أرباحها ضئيلة بالمقارنة مع أهدافها المستمرة. هؤلاء هم الرجال الذين يسودون ويحتكرون الصناعة.

وبعض الرجال يغمرهم الشعور والشجاعة، ولا يبالون كثيراً بمن يحاربون، وكل همهم هو الحصول على النصر لذاته. إنهم يحبون المشاكسة لا الكسب، ويفخرون في إحراز السلطة لا في إحراز المال والأموال، وفرحهم في ميدان المعركة وليس في السوق. هؤلاء هو الرجال الذين يصنعون الجيوش والأساطيل الحربية في العالم.

وبعض الرجال، وهم قلة، يجدون بهجتهم في التفكير والتأمل والفهم، وهم لا يتوقون إلى المال ولا إلى النصر، ولكن إلى المعرفة، وهم يناون بوجههم عن السوق والربح وميدان المعركة، وينصرفون في هدوء وصفاء إلى الفكر والتأمل، وهؤلاء تكون إرادتهم من نور وليس من نار، وهم رجال الحكمة، الرجال الذين يقفون جانباً لا يعرف العالم كيف يستفيد منهم، ولا يعرف قدرهم وقيمتهم.

أفهم من كلامك أن أفضل مكان لرجل المال -

هو الميدان الاقتصادي، وأفضل مكان للعسكري هو ساحة المعركة. وكلاهما لا يصلح للمنصب السياسي؟

- ولا يصلح لحكم الشعب إلاّ رجل حكيم ذو كفاءة.

- ومادام هذا الصنف القليل من الرجال مغيباً ومقصياً من الظهور، ومادام الاهتمام محصوراً فقط في صناعة العقول التي تسمع وتحفظ وتنقل، دون إخضاع ما يتم سماعه وحفظه ونقله لسلطة العقل، فأنت لن تتحمّس لما يجري؟

- ما يؤرقني هو لماذا عندما نحتاج إلى صناعة الأفرشة فإننا نبث عن مختص لصنعها لنا. وعندما نصاب بالمرض فإننا نفتش عن طبيب أخصائي حصل على شهادة الدكتوراه، وعندما نريد بناء جسر أو سد فإننا نحتاج إلى مهندس متمرس، وقس على ذلك...، لكن عندما يتعلق الأمر بتدبير شؤون الدولة فإننا لا نبث عن أفضل الرجال وأحكمهم وأعقلهم؟

وبالمناسبة أستطيع الجزم بأنه ما دام تغييب دور العقل قائماً فلا يمكن الحديث إطلاقاً عن إنسانية البشر، تلك القيمة المميزة للإنسان والمعظمة لشأنه وسط باقي المخلوقات. وعليه فإن من يسعى إلى إبطال دوره، هو بالأساس يعمل ضد إرادة الله العليا المتجسدة في تكريم الإنسان من خلال منحه نعمة العقل.

وباختصار أعود وأقول لك يا ميلودة: ما دامت الكفاءة لا تحتل المكان الأول في الدولة، فأنا لا أبارك هذه اللعبة القذرة.

التقطتُ أنفاسي للحظة، ثم استنثيتُ:

- ليس كل شخص يقدر على إحراز الأصوات
- يستطيع إدارة القرية والمدينة والدولة.
- أما أنا فما يصيبني بالعجز التام هو حجم الأموال التي تصرف بسخاء في هكذا مناسبات!
- المال يا ميلودة كالسماد لا ينفع إلا إذا بسُط، كما أن إعطاء القليل مقابل تحصيل الكثير هي تجارتهم التي لا تبور.

- أ لا تؤمن بكفاءة الجماهير؟
- الجماهير يسهل خداعها وغشها، وهي بالمقابل متقلبة الأهواء، وقد تم الاشتغال على تجهيلها بشكل استراتيجي ومنظم بهدف بسط النفوذ عليها وجعل السلطة في يد المشعوذين والدجالين والمنافقين الذين يسايرون أهواء الشعب ويتملقونه.
- أعود لأسألك عن كيفية تمييز الرجال العقلاء منذ البداية؟
- عن طريق القضاء على النظام التعليمي الطبقي، وتوفير فرص متساوية أمام جميع أبناء الشعب، وجعل تحقيق أفضل النتائج هو المعيار الوحيد والمشارك للاستحقاق، وليس الانتماء الطبقي الذي يقضي على عدد كبير من المواهب الحقيقية، ويبرز لنا عدداً أكبر منه من العاهات.
- هل نستطيع أن نطلق عليها ديمقراطية المدارس؟
- وهي أنبل، وأكثر فعالية من ديمقراطية

- الصناديق المثقوبة.
- أ لست مثاليا إلى أبعد الحدود في طرحك هذا؟
- بلى..
- وهل من رؤية أخرى عملية، وأقل تعقيداً؟
- أضعف الإيمان إدخال تعديلات على قانون الانتخابات تمنع ترشح من لا يفرقون بين الألف والعصى.
- أ بمقدوري أن أسألك سؤالاً شخصياً؟
- لست بحاجة إلى طلب الإذن يا ميلودة!
- إلى متى ستظل منزويا عند أطراف الهامش؟
- بإمكان الطبيعة أن تظل محبوسة في القمقم، دفيئة ردحا من الزمن في غياهب الذات، لكنها تنهض مع المناسبة والإغراء.
- قصدك أن القطة تظل هادئة إلى أن يظهر الفأر؟
- تماماً.. تماماً..
- وماذا تحبّ في الحياة يا فوزي؟
- ماذا أحبّ في الحياة!

آلة الوتر أولاً.. وأحلام الطفولة.. وطلب  
 العلم.. ولذة المعرفة.. وألوان الفراشات..  
 وطين النحل.. وعبير الأزهار الفواح..  
 وخضرة الروابي.. وزرقة السماء..  
 والربيع.. والصيف.. والخريف.. والشتاء..  
 والجداول.. والغدران.. والأنهار..  
 والبحار.. وأفنان الأشجار.. وشدو الأطيوار..  
 وهالات القمر.. وميلاد أضواء النجوم..  
 وقبلات الشمس.. وأنفاس السحر..  
 وتباشير الصبح.. ونضارة الحدائق الغناء..  
 وهمسات العشاق.. والفضيلة.. والتحرر..  
 والكرامة.. ولذة العناق.. ودموع الفرح..  
 والإبداع.. وتهدات العذارى.. وشقائق  
 النعمان.. والياسمين.. والزعرور.. والغنبر..  
 والريحان.. وصوت الناي.. والاجتهاد..  
 والغزم.. والكفاح.. والخصب.. والكرم..  
 والنبيل.. والجود.. والأمان.. والأمل..  
 والوفاء.. والإنصاف.. والصبر.. والبطولة..  
 والثواب.. والعفو.. والطموح.. والعدل..

والسنايل المتمايلة في الحقول.. والعطاء..  
 والنجاح.. ورائحة عنق الأم.. ولمسة الأب  
 الحنون.. والمجد.. والشموخ.. والبهجة..  
 والنقاء.. والأمانة.. والطمأنينة.. والحكمة..  
 والتبصر.. والشك..

يا سلام! وماذا تنبذ فيها؟

أنبذ يا ميلودة الظلم.. والفساد.. والجور.. والتكبر..  
 والحروب.. والعداء.. والجفاء.. والفجور..  
 والكراهة.. والحسد.. والرياء.. والقسوة.. والنفاق..  
 والتهجير.. والتشريد.. والسرقعة.. والنصب..  
 والاحتيال.. والتنكيل.. والسجن.. والجوع..  
 والعممة.. والمرض.. والمذلة.. والانسحاق..  
 والألم.. والوجع.. والطغيان.. والتحقير..  
 والموت.. والكدر.. والاعتراب.. والقهر..  
 والقلق.. والعنف.. والعجز.. والتجهيل..  
 والمرارة.. والغم.. والحقد.. واليأس.. والحزن..  
 والضياع.. ووجع الفقر.. وسطوة الشقاء..  
 وشدائد الفراق.. والغزاة.. وقطاع الطرق..  
 والحضيض.. والوحدة.. والهذيان.. والبخل..

والعويل .. والبكاء .. والفاقة .. والرعب .. ورياح  
المقابر .. والانتهازية .. والعار .. والظلام .. والأنين ..  
والتزوير .. والتهريب .. والسطو .. والاعتصاب ..  
والجبايرة .. والانحراف .. والخنوع .. والحرمان ..  
والزحام .. والترويع .. والانحطاط .. والابتزاز ..  
والجفاء .. والإهمال .. والكوايبس .. والنذالة ..  
والتعاسة .. والمقابر الجماعية .. والإبادة .. والهدم ..  
والعراء .. والتسول .. وذباب حاويات القمامة ..  
والخراب .. والأرق .. والنعيق .. واللهات ..  
والتعاسة .. والغدر .. والضياع .. والإفلاس ..  
والبؤس .. والشؤم .. والعطش .. والإغماء ..  
والانتحار .. والمنفى .. والرثاء .. والاحتضار ..  
وآلام الموت .. والأسر .. والسبي .. والصمت  
المطبق .. والنواح .. والضجر .. والسأم ..  
والرشوة .. والغش .. والتطاحن .. والمقصلة ..  
والعدم .. والسياط .. والتهيه .. والإحباط ..  
والوسواس .. واللطم .. والندب .. والمهانة ..  
والعاهات الفكرية .. والتهور .. والحطام .. ورنين  
السلاسل .. وبرودة الأقبية .. والطائفية ..

- والفناء.. والنكران.. والمخود.. والعقوق.. واليتم..  
 والقمع.. والخداع.. والتشاؤم.. والانفعال..  
 والغياب.. والكآبة والتوسل.. والفوضى..  
 والتسيب.. والجماحم.. والعجز.. والرصاص..  
 والمستنقعات.. والجراثيم.. والغدر.. والبطالة..  
 والإهمال.. والتصحر.. والحرائق.. والقيود..  
 والإدمان.. والتجسس.. والنعيق.. واليقين..
- أنا عاجزة عن مجاراتك يا فوزي!  
 - على فكرة لقد أحضرت لك الكتاب الذي طلبت  
 مني آخر مرة.  
 - هذا ليس وقت الكتاب. كفى ثرثرة!

\*\*\*

انتصبت ميلودة بقدها البريء من البدانة أمام المرأة عارية كما خرجت  
 إلى الدنيا أول مرة، بينما كنت ممددا في الفراش أتأملها وقد ترصعت  
 بخميل النضارة.

وجهها قبالة المرأة، وظهرها باتجاهي. تأملت قدميها المزينتين بنقوش  
 الحناء، وتوقفت برهة أعين قدمها اليسرى المحاطة بخخال فضي كنت  
 قد أهديته لها من قبل، وكانت شديدة الحرص على ارتدائه كلما زارتنى

في غرفتي. صعدت قليلاً من خلال انسجام نغديها المكتنزين، فتوقفت مطولاً أستمتع بسحر رديها المدملجين. تابعت سيرتي طولوا عبر عمودها الفقري، قبل أن أجد نفسي عند مفترق الكتفين، وتحديداً عند خالة سوداء، فزادت لوعتي لمتابعة تسلق القمة الشاخمة باتجاه بضاضة ذراعها وتلاعة عنقها.

كانت ميلودة تمسك المشط بيد وتداعب خصلات شعرها الحريري باليد الأخرى، وتدندن بصوت أغن لحناً، فيتناهى شدوها وكأنه صوت النسيم العليل وهو ينادي على الغيوم المحملة بالأمطار، ويستجديها أن تروي ظمأ الأرض العطشى.

كانت ميلودة في ذلك اليوم حارة وشبقة كما لم تكن من قبل، أو هكذا خيل إلي. وفي سورة النشوة العظمى تمنيت لو تتمزج أمشاجنا فأزرع في بطنها بذرة نتصر بها للحياة على حساب الموت. تمنيت لو أننا نبقى على تلك الحال، فنخلد ونهرب من سنابك الموت ومن شباكه اللعينة. ولكن الصدر سرعان ما جاش واهتز، وبطرده للزفرة الأخيرة، زفرة ما قبل الموت الحتمي، نحمد كل شيء وعاد دولاب الزمن للدوران من جديد.

\*\*\*

- هل هذا هو الكّاب؟

استدرت ناحية ميلودة وقلت:

- ليس هو. فتشي عن آخر غلافه بني اللون.
  - وماذا يوجد في هذا الملف. صاحت ميلودة بفضول، وهي تشير إلى الملف الوحيد المدسوس وسط أغراضي.
  - أحضريه وسأطلعك على ما بداخله.
- فردتُ محتواه على السرير، وهمرتُ بقهر يتلظى وأنا أتناول الوثيقة تلو الأخرى:

- فأما هذه فشهادة البكالوريا. وأما هذه فشهادة الإجازة. وأما كل هذه الأوراق التي ترين فهي شهادات لعدة تداريب قمت بها.
- والمحصلة ماذا؟ لا شيء.. لا شيء يا ميلودة.. لا شيء!
- أتعلمين كم عدد المرات التي حلقت فيها بالظفر بوظيفة أتعزى بها عن المجهود الرهيب الذي بذلته طيلة حياتي؟ من أكون في هذا الوطن؟ قطعاً لا شيء!
- من أنا بالنسبة لذاتي؟ حتماً عبء عليها!
- إنني جثة هامدة منغوسة في العدم واللاوجود

يا ميلودة!

إنني مقيد بسلسلة وجود فارغ يحرمني من أية  
انطلاقة مظفرة!

إنني خارج الحياة المليئة، وكلما حاولت  
جاهداً الإمساك بخيوط مصيري إلاّ وأفلتت  
مني!

إنني أجتز الإحباط في كل يوم، في كل  
ساعة، في كل دقيقة، وفي كل ثانية!  
إنني غريب في هذا الوطن الذي ليس لي!  
إنني أتفرج على كينونتي تضيع مني!

لقد راهنت على الدراسة كمنقذ ينتشلني من واقع متأزم، وأعبر بالتالي إلى  
وضع اجتماعي مناسب أبني به هويتي التي أرتضيها لنفسي، إلاّ أنّ الأفق  
ما انفك يزداد انحساراً، ومعه عشت على الدوام بين مطرقة الطموح العالي  
جداً وسندان الفرص الهزيلة جداً.

إنني لست أنا الذي حلمت به يوماً!

آه لو تعلمين كم أشقى للحفاظ على هذا الكم القليل من التوازن!

لفظت كلماتي الأخيرة، فخلق في الغرفة خفاش الصمت بجناحيه الوسختين،  
ولم تجد ميلودة ما تقوله لي في تلك اللحظة، فدنت مني وعانقتني بشدة.

- أرنو دائماً بقلب خافق إلى ما كابدته في طريق  
 تحصيل العلم، فيجتاحني شعور رهيب!  
 ولعلّ انعدام الإمكانيات، وقسوة الظروف  
 هما أبرز ما طبع مسيرتي الدراسية. صحيح  
 أنه لكل مرحلة دراسية لذتها الخاصة بالرغم  
 من كل الصعاب والعقبات، غير أن المرحلة  
 الجامعية تبقى هي الأفضل.  
 ولكن بماذا؟

ربّما تجرر الطلاب من قيود أسرهم ورقابتهم،  
 وخاصة القادمين من المناطق المجاورة للمدينة  
 الجامعية، وقد كنت واحداً من هؤلاء. وربما  
 بسبب حس المسؤولية الكاملة التي يتحملها  
 الطالب لأول مرة، فيغدو مسؤولاً عن

مصروفه اليومي، وعن دراسته، وعن علاقاته،  
وعن ومواقفه وأرائه، وعن قراراته...  
وربما بسبب النوافذ الجمّة التي تُفتح، وغالباً  
لأول مرة، على السجارة وبنات العنب  
والمرأة والنضال...

أتذكر سيجارتي الأولى عند باب مقصف  
الحي الجامعي فيحن قلبي إلى سخابة دخانها،  
ومذاقها الذي افتتنت به وما أزال. لحظتها لم  
يكن قرار تدخينها تقليداً، ولم يكن اعتداداً  
بالنفس، بل كان انتقاماً من شيء مبهم  
كان جاثماً فوق صدري ينغص صفو حياتي  
ويعكره!

أتذكر جرعتي الأولى من كأس النبيذ، لم يكن  
طبعاً من صنف النبيذ الذي يوضع في براميل  
من خشب البلوط، بل كان نبيذا رخيصا  
تقاسمت ثمنه وقطراته بالتساوي مع صديقي  
سعد في غرفته الشهيرة. ترى أين هو صديقي  
سعد الآن؟ وأين طوّحت به الأيام؟  
أتذكر المرأة الأولى التي مثلت بين نخضياها،

وكيف ارتجفت أطرافي وأنا في حضرة أمير  
 الممنوعات وسلمان المرغوبات. لن أقول عنها  
 (عاهرة) فهذا اللفظ فيه جحود وإنكار لفضل  
 سفيرات المتعة المحرمة. كانت سفيرة متعة،  
 وكانت تكبرني بعقدين تقريباً. بتجربتها الطويلة  
 أدركت من امتقاع لوني أنني عند خط  
 البداية، فلم ترحم ضعفي، وأطلقت العنان  
 لضحكة مدوية، رافقتها بالتربيت على كتفي  
 ومسح رأسي براحة يدها!

أتذكر الصرخة الأولى التي خرجت حارقة  
 من حنجرتي في إحدى التظاهرات الطلابية  
 الغفيرة، والمجارة الأولى التي رشقت بها من  
 أتوا لكبح جماحنا، وإسكات صوتنا، وإقبار  
 أحلامنا التي كانت تبلغ عنان السماء وتتجاوز  
 عرض الأرض.

أتذكر..

وأأتذكر...

فهنالك تناولنا العشاء الأخير، وهناك حللنا،  
 نحن السدج وقتها، بغد أفضل. وهناك سألت

قطرات النبيذ الأحمر وامتزجت بالدماء.  
 وهناك سهرنا الليالي الطوال نكد ونذرف  
 الدموع المالحه. وهناك اقتسمنا الرغيف الواحد  
 وكأس الشاي الواحد. وهناك صدحت  
 الحناجر مرودة أغنية الخلاص الأبدي.  
 وهناك ارتد اليقين شكاً. وهناك كان اللقاء  
 الأول. وهناك دق آخر مسمار في النعش.  
 وهناك ولدت قصص كتب لها الإفلات من  
 فك الأقدار المثبطة. وهناك سخر الواقع المرير  
 من أمنية عاشقين حاملين.

وهناك تعاهدنا.. وهناك تعانقنا.. وهناك  
 نضجنا باكراً.. وهناك اكتويننا.. وهناك من  
 نفس الثدي رضعنا.. فكيف عسانا ننسى؟  
 كيف؟

كففتُ عن الكلام برهة، ثم خاطبت عماد،  
 واحد من الشبان الذين تعرّفت عليهم في مدينة  
 طنجة، محطتنا الأخيرة قبل أن نولي وجوهنا  
 شطر الضفة الأخرى من البحر الأبيض  
 المتوسط:

- يبدو أنني تكلمت كثيراً! وأنت ما هي

دوافعك للإقدام على فعل كهذا؟

اقترب عماد من لهيب النار التي أوقدناها لدرء برد ليالي طنجة القارس، حتى إذا دنا من نورها برزت ملامح شاب في زهرة العمر، ببشرة قمحية اللون، وعينان بنيتان جاحظتان قليلاً. تنهد عماد بعمق، ثم همس بصوت محشرج، وقد ظهرت على وجهه سيماء الخيبة:

- القصة طويلة يا أخي فوزي.. ومرهقة.

كفّ لحظة، عب أنفاساً متلاحقة من سيجارته، فرمى عقبها أرضاً، ثم استطرد قائلاً:

- كنت قبل بضع سنوات، مع بقية زملائي في القسم، نستعدّ لتوديع السلك الابتدائي واستقبال السلك الموالي. والحقّ أنّي لم أكن متفوقاً ولا استثنائياً، بيد أنني كنت طفلاً محبباً للمدرسة، مواظباً وحسن السلوك.

صمت عماد قليلاً لسحب نفس من الهواء البارد، فاستتلى قائلاً:

- قصّتي بدأت بملاحظة اضطراب العلاقة بين أبي وأمي، حتى أمسى الشجار وتعالى الأصوات هما القاعدتان الثابتتان في بيتنا الطيني المكون

من ثلاث غرف، غرفتان لنا وغرفة لمارنا  
 اللعين، الذي لا يكف عن النهيق آناء الليل  
 وإيقاظنا مفزوعين.

صَدَرَتْ عَنْ عَمَاد تَنْهِيدَةٌ تُشِي بِتَعَاظِمِ أَشْجَانِ صَدْرِهِ، وَمِنْ أَعْمَاقِهِ  
 انطلقت زفرة، ثم قال وقد اصطبغ وجهه بحمرة شديدة:

- تَشَنَّجَتْ عِلَاقَةُ وَالِدَايِ أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ، فَتَوَالَتْ غِيَابَاتُ  
 وَالِدَتِي عَنِ الْبَيْتِ بِدَعْوَى أَنِهَا لَمْ تَعُدْ تَطْبِيقُ الْعَيْشِ فِي  
 بَيْتِ فَارِغٍ، إِلَّا مِنْ حِمَارٍ وَزَوْجٍ مَرِيضٍ، وَطِفْلَانِ  
 رُبَّمَا يَعِيقَانِ طَرِيقَهَا. غِيَابٌ تَزَامُنُ مَعَ انْتِشَارِ بَعْضِ  
 الْأَخْبَارِ فِي جَنْبَاتِ الْقَرْيَةِ، وَقَدْ سَمِعْتُ النُّزْرَ الْقَلِيلَ  
 مِنْ بَعْضِ أَقْرَانِي.

لَبَثَ عَمَادٌ مَبْهُوتًا رَدَحًا مِنَ الزَّمَنِ، ثُمَّ تَمَّتْ بِصَوْتِ مَتَهْدِجٍ مَمْزُوجٍ  
 بِالْأَلَمِ:

- كَمْ هُوَ شَاقٌ سَمَاعُ أَنْ وَالِدَتِكَ عَشِيقَةٌ لِرَجُلٍ آخَرَ!  
 بَصَقَ عَلَى الْأَرْضِ بِمَرَارَةٍ، فَأَكَلَ حَدِيثَهُ كَسِيرِ الْفُؤَادِ، بِصَوْتِ  
 تَعَانِقِهِ رَنَةَ الْأَسَى:

- لَقَدْ صَفَعْتُ الطِّفْلَ الْأَوَّلَ الَّذِي أَخْبَرَنِي بِذَلِكَ، غَيْرَ  
 أَنِّي تَحَقَّقْتُ مِنَ الْأَمْرِ فَوَجَدْتَهُ أَمْرًا وَاقِعًا لِلْأَسْفِ  
 الشَّدِيدِ.

حدجتُ عماد بنظرات تم عن بالغ تأثري، وهممت أن أقول له: أي شخص يستطيع أن يتحمل كل هذا العذاب دون أن يصاب بالجنون؟ إلا أنني عدلت، فاكتفيت بالإنصات والشفقة!

- ألفتُ نفسي في دوامة لا متناهية من الحيرة والتساؤلات المعلقة: أليس هذا هو سبب الشجار الذي تنامي منسوب سيله الجارف مؤخرًا؟ هل يمكن أن يدير الجميع ظهره لأبي بعد إصابته بالمرض، بمن فيهم والدتي؟ أشفت على حال أبي الذي أقعده المرض وطرحته خيانة والدتي أرضاً. لكن ما عساه طفل صغير أن يفعل؟

ذات صباح، استيقظت على نغمات وتقاسيم الحمار الصباحية. وكعادتي خرجت لجلب الماء من البئر، وما إن خطوت بضع خطوات مخلفا باب المنزل خلف ظهري، حتى لمحت جثة نندلى متأرجحة من أعلى شجرة الزيتون الوحيدة المتواجدة بقرب منزلنا. وبخطى ميته دنوت منها، فإذا بها جثة أبي!

لفظ عماد الكلمات الأخيرة، ولاحت على محياه لوائح الكدر والغم، فصمت تاركاً المجال أمام بعض الدموع المألحة. وما هي إلا لحظات تنصرم حتى أشعل سيجارة أخرى، فعض عليها بشفتيه،

وأخذ يفرك يدا بيد طلباً لبعض الدفء الخارجي، أما داخلياً فقد كان يغلي كبركان مستعر.

مرّت الثواني مليئةً بالعذاب. لحظتها تمنيت لو أن ما يرويه عماد هو فقط تفاصيل حلم مزعج! وددت الارتقاء في أحضانه، بيد أنني أطبقت فمي، وأطرقت واجما في حزن غير خاف أنصت لعماد وهو يقول:

- بعد الحادثة غابت والدتي عن المشهد نهائياً،  
وقد اصطحبت أختي الصغيرة معها، خوفاً من  
تهديدات أعمامي...

- عذراً على المقاطعة يا صديقي، لكن يبدو أن  
القادم هو الرويبو!

صحتُ وأنا أشير إلى شبح شخص كان قادماً باتجاهنا.

فأجابني عماد، وقد تلفع صوته باللامبالاة:

- نعم.. يبدو هو من خلال مشيته.

- هل معك المال المتفق عليه؟ سألتُه وأنا أتفقد حزمة  
المال الذي جمعته في كّامة.

- أجل بحوزتي. قال عماد، فأوماً برأسه مؤكداً.

ثم هتفت، وقد ارتسمت على وجهي ابتسامة خافتة:

- دعنا نتعاقق إذن ونتمنى الحظ الطيب لبعضنا، على

شرط أن نكل حديثنا فور أن نطأ أرض الضفة  
المقابلة.

\*\*\*

في عرّ الظلام الدّامس، ووسط اللجة، كان الزورق المطاطي  
يتمايل صعودا ونزولا في مقاومة مستميتة.

اكفهرت الوجوه وهي تبصر بابا من الحجيم يترع على مصراعيه.  
اصطكت الأسنان. أغمضت أعين، وحفظت أخرى. التصقت  
الأجساد ببعضها. أتليت الصلوات بلغات ولهجات مختلفة، وتعالى  
صوت الأدعية والنحيب.

لحظتها مر شريط الذكريات أمام عيني، فشاهدت بجلاء طفولتي  
المعدبة منغمسة بماء البحر المالح، منقوشة على سطحه.

- استيقظ يا بني!

كان صوت أمي، فقد سمعته بوضوح ينبعث من قلب الموج  
المصطنخ. ومن رذاذه انقشعت صورة الطفل الذي كنته وهو  
يتقلب في فراشه، ويسحب الغطاء إيذانا منه أنه يريد الاستمرار في  
النوم. لكن الشمس كانت قد دعيت إلى شروقها، ومع خيوطها  
الأولى يتوجب القيام.

- لقد حضرت لك البيض المسلوق، ودست  
لك الملح والكمون في مكانهما المعتاد.

خفت الصوت المنبعث من الموجة، ثم صمدح بوضوح:

- قم يا بني حتى تلحق وصول حافلة الركاب!

ولم يمر إلا ربح قليل من الزمن حتى رأيت طفولتي تنط كضفدع مذعور من فوق السرير المتآكل، فارتدت أسماها البالية، وانطلقت في رحلة بحثها عن رزق الأسرة بأكلها، تجوب المقاهي متأبطة سطل البيض المسلوق، ولسانها يردد:

- بيض.. بيض.. ها البيض سخون.. ها المعالجة..

ها البيض سخون!

وبين فينة وأخرى كانت الطفولة البريئة تبتعد الساعة على معصمها النحيف، وتشرّب بعنقها ترقب قدوم الحافلة، فرصتها الأكبر لبيع بيضها المسلوق.

ومع مرور الدقائق والثواني، كانت الشمس تتربع قرصاً أصفراً يزداد سطوعاً شيئاً فشيئاً. ومعه كان يتنامى قلق الطفولة واضطرابها، مخافة أن يفوتها وقت المدرسة!

إحساسها هذا كان يجلي كليا عند رؤية الحافلة المهترئة، وهي تتقدم بخطى شيخ عليل أضناه العمر المديد والشوق لمعانقة التراب. وأمام بابها الصدئة، كانت تصطف مع الباعة المتجولين، من بائعي السجائر والجرائد والحلويات، وكذا المتسولين على كثرتهم. وفور صعودها، تمنح السائق ومساعدته بيضتان بدون مقابل! ثم ما تنفك

تصيح مرردة موالها، الذي أصبحت تنطقه بغير تفكير أو ترتيب مسبق، وقد تجردت من الارتباك الذي كان يعترها بادئ الأمر، فصارت مندججة مع واقعها حد الانصهار والتماهي:

- بيض.. بيض.. ها البيض سخون.. ها المعالجة.. ها  
البيض سخون.

ومن عمق البحر انداح صوت شبجي يغني أغنية الأيام الغابرة:

أ جُرَادَةَ مَالِحَةَ..  
فِين كُنْتَ سَارِحَةَ؟  
فِي جَنَانِ الصَّالِحَةَ..  
أَشْ كَلْبِيَّتِي؟ أَشْ شَرِبْتِي؟  
غَيْرِ التَّفَاحِ وَالنَّفَاحِ..  
وَالْحَكْمَةَ بِإِيْدِيكَ..  
يَا الْقَاضِي يَا بُؤْمُفْتَاَحْ..

بعدها توقّف الصوت، ومعه انسحبت طفولتي واندثر نورها. فلاحت وسط اللجة مراهقتي مبتسمة ساخرة، لتذكرني بأحداث تلك الليلة، والتي ما برحت منقوشة في ذاكرتي.

لقد كانت ليلة من ليالي غشت الصيفية، ومع اقتراب حلول الصباح، تحركت نسائم هواء باردة وخزت جلدي الفتي. فأجلت ببصري بحثاً

عن ملاذ أقضي فيه ما بقي من السويعات الفاصلة بين تصرم الليل  
ومجيء النهار.

التصقت بالحائط المطلي حديثاً، فولّيت وجهي ناحية الفرقة الموسيقية،  
وأنشأت أزحف كدودة في غفلة من الجميع، فقد كانوا مشدودين إلى  
أصوات المزامير والطبول وحركات الراقصة التي كانت ترافق أعضاء  
الفرقة الموسيقية وتشكل عنصرها الأساس. ولما بلغت باب إحدى  
الغرف، ألصقت جسمي النحيف بها، وطفقت أعاين مشاهد الفرح  
وقد أثقل النوم جفني وأنهك قواي.

ربضت هناك والندم يحوم حولي أطيفا متعاقبة. وكم أسفت لعدم سماع  
نصيحة أمي التي حاولت جاهدة ثني عن مرافقة موكب العروس! لقد  
أخبرتني المسكينة بأن جيراننا، من أهل العروس الذين سيرافقونها،  
سينشغلون عني فور وصولهم، وربما لن يلحظوا وجودي. وأكدت  
لي بأنهم سيكونون ضيوفاً لا أكثر. غير أنني هزرت منكبي إعراضاً،  
فتسلقت شاحنة مع الحشود، وسرنا جميعاً في موكب عرائسي مهيب.  
بجأة فتح الباب الذي كنت أسند ظهري إليه، فخرجت يد - دون أن  
أرى صاحبها - ووهبني قطعة قماش بيضاء!

تسلّته ظناً مني أنني قد منحت أخيراً ما يعينني على مقاومة برد الصباح  
الموشك.

بسطتُ قطعة القماش أمام ناظري، فألفيتها سرّوالياً نسائياً أيضاً مزرکشاً

قد حيك من ثوب ناعم. وكم ذهلت وأنا أشاهد بقع دم متناثرة على  
السروال! قبل أن تهرع إليّ سيدة من الحاضرات، بقدر ما أسعفتها بنيتها  
الجسدية الضخمة، فنزعتني بعنف ونظرات قاسية.

وبينما كان الزورق المطاطي يصرع الموج وشدة اصطخابه، كنت  
أبتسم هازئاً من سذاجتي يومها.

ولم تزل الابتسامة مرسومة على محياي حتى انقلبت خوفاً شديداً عند  
سماعي للمسؤول عن الزورق، وهو يصيح بنا قائلاً:

- لقد اقتربنا من الشاطئ.. جهزوا أنفسكم للسباحة!



## الفصل الثالث:



استقرّ بي المقام داخل إحدى المقاهي. وإلى نفسي جلست فوق  
صخرة الوحدة، والتيه إبر مسمومة تحز ضلوعي فيذب الألم في  
أطرافي.

بعجز طفقت أعيد شريط الذكريات المنفلتة من بين يدي كالسراب  
والهاجعة في فراش الأمل السرمدي، وقد احتاج حنيني وأنشأ  
يقطر نبينا معتقا.

تحت أشعة تموز الحارقة كنا نستلقي على جنبات النهر في تقليد سافر  
للسلاحف وهي تستمتع بحمامها الشمسي. ومع اشتداد الحر كان  
النهر هو ملاذنا الوحيد نحن الصغار.

بأجسادنا الهزيلة التي أعيها القیظ، وبأرجلنا الكبيرة التي لا  
تناسب مع أجسامنا من كثرة مشينا حفاة، وبجوهنا التي لفحتها

الشمس، وبجلودنا المكوية بلظاها، كما نسخر من الحياة ومن قساوتها على طريقتنا الخاصة. ومن يعبأ بحجرها والنهر الحبيب موجود؟

بوسائلنا البسيطة حينها، والتي لم تتجاوز يوماً كرة من الخيش، كما نصنع فرحتنا.

أما الحصول على كرة من البلاستيك فكان يمنح للمالك الشرف بأن يصير رئيساً للفريق، ومدرباً له، وقائداً للجميع، فيختار أعضاء فريقه كما يحلو له، والويل طبعاً لمن احتك به وأسقطه أرضاً!

كان التسلل من المنزل والحق بالسباحين المهرة هو أصعب فصل في المغامرة، فالحراسة كانت غالباً ما تكون مشددة، ومعززة ببعض العيون المراقبة. ولفك الحصار كانت الخطة تقضي انتظار استسلام الوالدين لنوم القيلولة، كما كانت تستوجب أيضاً عقد هدنة مع باقي الوشاة. وكم صفقة أبرمتها مع أختي الصغيرة!

غير أن معانقة المياه البلورية والانتعاش ببرودتها كان يستحق التنازل وعقد صفقات حسب ما يرضي الأطراف الأخرى. أما نهب غلال الحقول المجاورة للنهر فكان يعطينا قوة رهيبة لمقاومة الضرب المبرح الذي كنا نلناه عند أوبتنا إلى منازلنا وأذان المغرب. أما ما نلناه ذات مرة من صاحب أحد الحقول فعصف بنا،

وجرح كبرياءنا، وجعلنا نتوقف عن أنشطتنا أياماً طوالاً.

لقد كانت خطته على ما بدا لنا مدروسة، وكان تصميمه على الانتقام منا قوياً معززاً بدوافع شتى. تربص بنا وأخذنا غدرا كما كنا نصنع به، ومن جنس الفعل كان العقاب. ففتنن في مصادرة أسماننا البالية، وفرض علينا العودة إلى البيوت عراة!

في عزّ الصيف كان يتوقف جريان النهر وينحصر ماؤه، فيتحول إلى برك راكضة تعج بالأسمك. وضع خاص كنا نتعائش معه نحن أيضاً بتغيير أنشطتنا من السباحة إلى صيد الأسمك.

وكانت لنا طرقنا الخاصة في ذلك. واستفادة من التجارب المتراكمة، كنا ننقسم إلى مجموعتين كبيرتين، حيث نعمل إلى تعكير مياه البركة بالركض أولاً في اتجاهين متعاكسين، ثم عشوائياً في كل الاتجاهات. وما أن يغدو الماء عكراً حتى تبدأ الأسمك بالإعلان عن نفسها، فتحاول مرغمة الاقتراب من السطح حيث الماء أقل امتزاجاً بالوحل. لحظتها كانت تبدأ حفلتنا، فنشرع في الانقضاض عليها كالنوارس الجائعة.

وبانتهاء أيام الصيد الوفير نتوقف علاقتنا بالنهر إلى حين، ونشرّب بأعناقنا نرقب دنو موعد اللامة.

تُصب أول خيمة عند جنبات المضمار فيسري الفرح في عروقنا

مجرى الدم، وتتناق عناقا طويلاً حارا ترحيباً بالقادم العزيز. وم  
كانت اللامة تعني لنا الشيء الكثير!

عشرات الفرق، ومئات الفرسان، وآلاف الزوار كانوا يأتون إلى  
بلدتنا قادمين من كل حدب وصوب. ومن طلوع الشمس حتى  
الهزيع الأخير من الليل كانت الفرجة تتوزع بين عروض الفروسية  
التقليدية، وبين الفولكلور الشعبي، والرقص...

بخطى ثابتة كان مقدم السربة يتقدم سربته، ويعلن عن نفسه  
بصوت جهوري:

- بسم الله.. بسم الله..

وما إن يصدح لسانه بالبسملة حتى تشرع الخيول بالصهيل، وتدب  
في أوصالها رغبة جامحة في الركض. بنخوة واعتداد بالنفس يقوم  
المقدم بدورة أو دورتين من يمين السربة حتى شمالها، فيعطي  
تعليماته للفرسان، قبل أن يتوسط السربة ويعلن عن بداية الضربة  
قائلاً:

- الحافظ الله..

ثم يردف وهو يرفع بندقيته عالياً في السماء:

- الحافظ الله..

الحافظ الله..

عدا أسيادي عدا..

وا شد الخليل..

شد الخليل..

شد..

أفين غادي؟

فين غادي؟

أهيا سيادي ديروا بالكم!

يهتمّ مقدم السربة بأدق التفاصيل كما يسهر القائد الفذ على شؤون جيشه. ومع طلقات البارود تنتهي الضربة، والضربة امتحان، وعند الامتحان يعز المرء أو ييهان. فإذا كان التوفيق حليف المقدم ومجموعته فإنهم ينالون التصفيق والزغاريد وألف تحية. وإذا كان الإخفاق حليفهم فإنهم ينالون صيحات الاستهجان، وغالباً ما كان المقدم يُنزل صاحب الخطأ عن حصانه بتحريض من الجمهور. ولشد ما كان يؤلم ذلك الفارس المعاقب!

وهكذا تتوالى الضربات فيغشى الفضاء الرحب صوت وقع أقدام

الخيلول، ورنين أجراس السروج، وأصوات المزامير والطبول والدفوف، ويمتزج الهواء برائحة البارود وروائح الأطعمة المنبعثة من المقاهي والمطاعم الشعبية.

ويرجع الشمس إلى مرقدھا وتلون الأفق بلونها الأحمر تؤوب الخيلول إلى مرابطھا، وتنفرد الجموع إلى وجهات شتى. فمنهم من كان يقصد حلقات الفرجة على تنوعھا، ومنهم من كان يتبع صوت المزمارة أنى ذهب، ومنهم من كان يقصد معرض الألعاب التي يضفي تواجدھا رونقا خاصاً على فعاليات المهرجان.

أما أنا فكنت أجمع من المال ما استطعت، وأقصد معرض الألعاب، وفي كنفھا أعيش كبورجوازي متعفن أسبوعاً كاملاً. وكانت حلقات القمار هي الأحب إلى قلبي! كما كانت لي مذاهي الخاصة في تحصيل النقود واذخارھا على مدار العام.

ومن بيع السجائر بالتقسيط يوم السوق الأسبوعي أو الأيكاس البلاستيكية، كنت أجنبي ثلاث أرباع ثروتي. أما الربع الأخير فكنت أجنیه من جمع الحلزون وبيعه، أو ترصد السكارى وبيع قوارير الخمر الفارغة التي يخلفونها وراءهم! والحق أنني لا أعلم كيف نجوت من طفولتي! وهل أنا نجوت حقاً؟

تَنفَّستُ بعمق، وما عمت أن ارتشفت من فنجاني رشفة،

فرشفتين. وكم وددت لحظتها لو أنني من معشر المدخنين! هممتُ  
أن أطلب من نادل المقهى سيجارة، فمنعني تحرجي من لفت  
الانتباه إليّ بالسعال.

اكتفيتُ بتأمل قعر الفنجان، وأمام ناظري تجسد فصل الربيع  
بصفائه وعذريته، وفرحتُ لرؤية العصافير وهي ترتوي من نبع ماء  
غدق، فكان منها شدو وكان مني إنصات!

وانبسطتُ أسارييرى لتمايل الأعشاب فوق البساط المخضر،  
ولتشابك أغصان الأشجار والتحامها وعناقها الحار. وطابت نفسي  
لابتسامه الأزهار الحمراء والبيضاء والصفراء والأرجوانية والزرقاء  
والبرتقالية...

ألهمني تَضَوُّع شذى الرياحين والزهور الكثير من الطمأنينة  
والراحة، وإلى دواخلي ارتد إحساس يضارع هدوء الليل الصيفي  
المخرم بأنوار المدن البعيدة وعرير الصراصير.

ومن كوة صغيرة رمقت حبيبي الأزرق!

موج يصطنخب، ورياح تدغدغ بنات البحر. شمس تغازل  
الأفق، وقر يتهيب لاعتلاء عرش السماء. صخور أبت الانحاء  
فبرزت كظهور السلاحف، ونوارس تؤوب إلى صغارها ممتلئة  
البطون وهي تلهج بالشكر الجزيل. طفل صغير يتمرغ فوق حبات

الرمل، وسكارى يتهيون لمسامرة طويلة. صياد يلهم أشياءه  
ويتفقد عطايا البحر، وعاشقان يرتشفان رحيق قبلات مسروقة  
ويشيدان قبرهما!

سألني النورس، رسول الأنواء، عن موعد اعتناقي لزرقاة البحر،  
فأجبتة:

- عندما يهجر الناس والشمس الشاطيء..  
عندما تثلبد السماء بالغيمة.. عندما يدوي  
الرعد، ويومض البرق، وتخرج بنات البحر  
من مراقدهن.. عندما توصلد الأبواب وتقفل  
النوافذ.. عندما تحمي كل أم صغيرها وتصدّه  
عن الخروج.. عندما ينسحب بريق الوداعة،  
ويتضمخ الضباب بأزيز الريح.. عندما تسمو  
الأمواج عالياً وتضارع بضخامتها الجبال  
الشامخات، ويبأسها الوحوش البائدة.. عندما  
يصير الارتقاء في الزبد والماء المالح ضرباً من  
ضروب الجنون.. فذلك هو اليوم المشتى!  
يا قلب اخفق بشدة واعتل سلام الضباب  
وعرش الغيم!  
يا قلب اهتف باسم الحياة، واغرف من ينابيعها

شربة تروي ظمأك للأبد!  
يا قلب غازل أنة الروح بأسمى عبارات الوله،  
وقدم بين يديها طقوس الطاعة والولاء!  
يا قلب ضع عنك أوزار اليأس، وأوقد جذوة  
النار في المناطق اليباب!

هكذا أخذت أخاطب نفسي وقد تنازعت قلبي ضروب مختلفة من  
المشاعر. لقد دنت مني السماء فصارت على مقربة مني، ويدي  
أنشأت ألوح للأرواح في مسارح الأبدية!  
مددتُ يدي كي أقطف من سمائها نجمة أضيء بنورها ردوب  
حياتي، فتناهى إلى مسمعي:

- عبد المجيد! عبد المجيد!

- ...!

- رحم الله الوالد الكريم!

بلسان يلهج بكلمات الوداع الأخير، أمسكت بطرف النعش الخشبي مع بقية المشيعين، وحملت على كتفي جسد أبي المغطى بالكفن الأبيض، وقطعة القماش الخضراء التي تصحب الموتى إلى مثاهم الأخير.

برفق أنزلت جثة أبي من فوق النعش، وأزيج عنها اللحاف، وبطريقة آلية تفقد أحدهم عقدة الكفن عند رأسه، ثم فرد آخرون إزارا أيضا للحفاظ على قدسية الميت، وزاد الفقيه من وتيرة تلاوته لسورة يس المباركة.

لقد دقت ساعة الصفر، وأن للجسد الفاني أن يلتحم بأمه الأرض ككرة أخرى. هذه الأم التي قدر لها أن تشهد على فناء جميع أبناءها وضمهم إلى حضنها الدافئ جثنا هامة، ويا له من مصير عنيف! احتميتُ بمعية شخصين آخرين بظل الإزار، وتبادلنا نظرات صامته

قبل أن نشرع في إنزال الجثة إلى قعر القبر، ووضع حجارة اللحد فوقها...

وفي ظرف وجيز انتهى كل شيء، فانفض القوم من حولي، وبقيت لوحدي واقفاً عند ناصية القبر، وقد تخلصت من الصدمة التي تسبق الدفن، واجتاحت نفسي تهاويل الفجعة التي تليه وصرت في حضرة الفقدان القاهر، فحتى اللحظة التي سبقت نهل التراب على جثة والدي، كنت أتحمس الأمر وكأنه خيال أو كأنه حلم إلى زوال!

جاش صدري واختنق.. اغتم قلبي وانفطر.. تلجلج لساني وارتيك...

كنت أعلم بأن الصراخ علاج فعّال، وأن البكاء بلسم للجراح، وأن انتزاع الموتى من قبورهم ضرب من ضروب العجز المقدر علينا.

آه كم تمنيت لو أنني أستطيع الصراخ!

لو أنني أستطيع البكاء!

لو أنني أستطيع انتزاع أبي من مرقدته!

\*\*\*

قَبِيلَ مغيب الشمس، وفي طريق أوتبي إلى البيت استرجعتُ لحظةً تحديقي في فتحة القبر الضيقة. كانت المرة الأولى التي حدّقت فيها

إلى الموت من تلك المسافة القريبة. ولقد أبصرته هاجعا في القعر،  
كان منظره مهيبا، وكانت رائحة البرودة المنبعثة من تلايبه تشجع  
على أمر واحد وهو الموت!

وفي الليل كان منزلنا والساحة المحيطة به يغصون بأهل البلدة.  
وكان صوت المقرئين يصدح عالياً في السماء، فيملاً القلوب  
خشوعاً وطمأنينة.

اقتعدتُ كرسيًا عند باب الدار، وإلى جانبي جلس أخي رضوان  
وبعض من أبناء عمومتي، لاستقبال من يأتي، وردع من أراد  
الانسحاب قبل تناول وجبة العشاء. وبينما نحن كذلك جاءني  
ابن أخي مسرعاً فهمس في أذني بأن والدته تريدني في أمر عاجل.

- لقد صار العشاء جاهزاً. قالت أختي فاطمة

الزهراء بصوت مبحوح.

فنظرت إليها وقد اخضلت عينها من شدة البكاء، وقلت:

- لقد تعب الناس معنا اليوم بما فيه الكفاية،

وسيكون من الأليق تقديم العشاء حالا.

نجية الجبوري:

أمي..

وبعارة أخرى سيّدة اليقين.

كانت رحمها الله تعتقد يقيناً بأن الطويهرة هي مركز الكون، وبأن الشمس هي من تدور حولها، وبأن بناتها هن الأجل، وبأن أبناءها هم الأفضل، وبأن واجب الزوج هو إحضار القوت فقط، وبأنه رجل يفعل ما يريد، ويتصرف كما يشاء، ويعطي الأوامر ثم ينسحب لمراقبة تنفيذها من عدمه، وبأن واجب الزوجة هو خدمة الزوج أثناء حضوره، ومنع الأطفال من الحركة أثناء نومه، والسهر على تربيتهم من الألف إلى الياء، وتعويضه في غيابه، والقيام بكل ما يجب داخل البيت وخارجه! وكانت تعتقد أيضاً بأن سيد الأولياء والصالحين سيدي عبد الكريم

الطويهري هو من يمحي ببركته أسرتها وأهل الطويهرة وسكان الأرض جميعاً من الهلاك المبين والشر العظيم، وأن سكب الماء الساخن في المجاري المائية لا يجوز، وأن القطط تحج يوم عيد الأضحى، وأن النظر في المرأة ليلاً أمر فيه خطورة بالغة، وأن التصفير يسبب الفقر، وأن «التابعة» أشد فتكا من الطاعون، وأن تخطي النائم يحذ من طول قامته إلى الأبد، وأن حذوة الحمار تدرأ العين وتدفع الحسد، وأن الكلب الأسود جني، وأن نعيق الغراب نذير شؤم، وأن أكل جرو صغير بعد طبخه مع بعض الأعشاب ينهي عقم المرأة، وأن «الخميسة» أحسن التائم، وأن أي كذبة أو خطأ يخطئه الإنسان هو بتدخل من الشيطان الرجيم، وأن حك اليد اليمنى يوحى بقبض الأموال، وأن الحذاء المقلوب فال خبيث، وأن الاستحمام بالليل غير منصوح به بتاتا، وأن الإمساك بالخشب عند سماع خبر مفجع هو الطريقة الوحيدة التي تحمي من ملاقة نفس المصير، وأن رفرقة رموش العين دليل على قدوم الضيوف، وأن فتح المظلة داخل البيت يجلب الخراب لأهله...!

كانت أمي بهيئة ببساطتها، وقد أفنت العمر كله في الاعتناء بأسرتها والإخلاص لما تقوم به. وفي مقابل الغياب الذي ميز حياة أبي، فقد سجلت حضوراً طاغيا وكانت هي الكل في الكل، فملاّت نسبياً الفراغات التي تركها أبي.

\*\*\*

فاطمة الزهراء الطويهرى:

## أختى الكبرى..

هي نسخة طبق الأصل لأمي، تشبهها في الملامح والاعتقادات واليقين التام، ولا غرو في ذلك فكونها البنت الأولى أعطى لأمي الفرصة السانحة والوقت الكافي لتمرير أفكارها على مهل.

انقطعت فاطمة الزهراء عن الدراسة باكراً وتفرغت للاهتمام بشؤون الأسرة ومساعدة أُمِّي في ذلك، ثم تزوجت في سن المراهقة. تزوجها شاب من أهل الطويهرة، كنت صغيراً حينذاك، وسكنت معه في بيت والديه عند أطراف البلدة. وظلت تزورنا باستمرار، فكانت تغدق عليا أُمِّي في غياب والدي بالطحين والزيت والزيتون والسمن والعسل...، وقد كان زوجها من جملة أصحاب المشاكل والشجارات المتواصلة والمسحوقين. أما لمَ زوجها له؟ فهذا ما لم أستسغه إلى حدود اللحظة! وعلى امتداد سنوات زواجها، رزقت منه بثلاثة أطفال. وفي السنوات الأخيرة توفي والداه، وبقيت معهم في المنزل أختها المجنونة. لكن على العموم الاعتناء بزواج كسول، وسيدة مجنونة، وثلاثة أطفال، أهون بكثير من الاعتناء بهم جميعاً وبشيخين طاعنين في السن لا يقويان على قضاء

حوادثهما الشخصية.

\*\*\*

زينب الطويهرى:

شقيقتي الصغرى..

كانت أوفر حظاً من فاطمة الزهراء، وربما كانت الأوفر حظاً منّا جميعاً. لم تتزوج من الطويهرة، وهذا لا يعني أن أحداً من شباب البلدة لم يتقدم لطلب يدها، بل تزوجت من خارجها وكان هذا مكسباً كبيراً لها. وقد كان لتجربة فاطمة الزهراء الفاشلة، رغم أن الفشل كان محتملاً لها، اليد العليا والفضل الكبير في تخليصها من براثن الطويهرة.

كانت زينب ولا تزال على قدر وارف من الوسامة والدعابة وخفة الروح. وكانت أيام الصبا هي الوحيدة التي تتجاسر وتطلب العيديدية من أبي، العيديدية فقط ولا شيء إضافي.

أنجبت في المرة الأولى بنتاً لم يكتب لها النجاة من مخالب الموت. ورزقت في المرة الثانية بطفلة أخرى، هي وحيدتها إلى حدود اليوم. أما زوجها فكان موظفاً بسيطاً في إدارة عمومية. وكان، ولا يزال، ظاهر الحب لها متعلقاً بها إلى أبعد الحدود. ولهذا فأنا أقدره

وأعزّه معزة الرجل لخليله.

\*\*\*

رضوان الطويهي:

أخي..

لا أستطيع تذكر المرة الأخيرة التي كنت فيها على وفاق مع أخي رضوان. كان صعب المراس على الدوام، وزاد طبعه شراسة وحدة عند تعرضه لحادثة سير سببت له إعاقة دائمة على مستوى قدمه اليسرى، فصار يعرج بها.

غادر مقاعد الدراسة في المرحلة الإعدادية، بعد الحادثة مباشرة، وكرس وقته لمرافقة رهط من أبناء البلدة، فأدمن تدخين «الكيف»، وقد ساعدته أمي وشجعتة على ذلك. فمن جهة كانت تمدّه بالمال، ومن جهة ثانية كانت تستر على زلاته عند أبي.

وباستثناء تدخين الكيف والتغريب بالقاصرات، الأمر الذي كان يتقنه رضوان إلى درجة التفنن، فهو لم يكن يبغى من الحياة شيئاً، ولا يتطلع إلى تحقيق أي هدف!

التاريخ كان عنده متوقفاً، شأنه في ذلك شأن معظم شباب بلدة الطويهي، الأم التي كانت تلهم أبناءها كلّها جاءت!

فأما الطويهرة فهي بلدة وليدة لها مساحة غير واضحة الملامح. تضم مستوصفاً وضيعاً، ومدرسة ابتدائية، وثانوية إعدادية، ومقراً للدرك، ومقراً للبلدية، ومساحة شاسعة تقام فيها اللّامة بشكل سنوي، وسوقاً أسبوعياً غارقاً في الفوضى حد النخاع.

وأما الجبال والتلال المحيطة بها من كل حذب وصوب، وماؤها المالح الأجاج، وجوها المكفهر على مدار السنة، وقلة التساقطات المطرية فيها، وجشع باعها، وكثرة مزابلها وذبابها ومجانينها، فهي كل ما يميزها.

صغارها لا يبالون بها ولا يكثرثون، فسكرات الطفولة تغشى أبصارهم وأفئدتهم. شبابها يلهون بتركها في كل دقيقة وثانية. بناتها ونسائها هن الأكثر تضرراً من نسيجها المهترئة حيطانه والمتداعية أسواره. أما شيوخها فيبلعون الهواء، وينتظرون الموت بفارغ الصبر ويغازلونه في كل ليلة قبل الخلود إلى النوم، علّه يريحهم من شؤمها ولعنتها التي اكتتوا بنيرانها سنين عدداً.

كان الناس إذا ضحكوا هناك ندموا، وقالوا بخشية ووجل:

- يا ربي تُخرِّج هذا الضحك على خير.

وإذا تمارحوا بينهم تبارزوا بالألقاب. وإذا أخطأ أحدهم صاروا قضاة ومشرعين وأولياء صالحين. وإذا ثبتت الخطيئة على صاحبها،

فإنه يقاطع ويعاقب أبد الدهر. وإذا ثبتت الخطيئة على صاحبها  
فتلك نهايتها وذلك قبر حياتها.

وبين مقهى ومقهى توجد مقهى على امتداد شارع وحيد! وبين  
الرجل ونفسه مئات الأميال! وبين المرء وخليله سد منيع!

جل أهل البلدة من الفلاحين الكسالى والمعدمين. يقضون اليوم  
بأكمله في المقاهي، يلعبون الورق ويغتابون بعضهم بعضاً، ويتربون  
مرور امرأة من أمامهم حتى إذا مرت جردوها بأعينهم من كامل  
ملابسها، واستعرضوا تفاصيلها بنظرات ثابتة.

حديثهم عن الفضيلة والأخلاق يغويك بالجلوس والاستماع.  
وأفعالهم الخسيسة تدفعك إلى الفرار دفعا، ما استطعت إلى ذلك  
سبيلاً.

يحكى بأن الجيش العثماني هزم على أرضها وخرج منها مدحورا،  
في معركة لم تتجاوز الست ساعات!

ويروى أن بوحارة قد اقتنى حمارته من سوقها الأسبوعي!  
ويقال بأن عبد الرحمان المجدوب لم يجد قولاً يناسبها وأهلها،  
فاكتفى بالصمت ولاذ بالفرار منها قبل طلوع الفجر.

ويروى أن بوخنشة قد خطف صغارها وأكلهم ذات زمن سحيق

تصرم!

ويقال بأن الغول قد سبي نساءها، واستعبد رجالها!

ويحكى أن عَيْشَةَ قنديشة، سيدة المستنقعات، قد أغوت شجعانها فارسى الجنس معهم، ثم قتلهم وأكلت لحمهم وشربت دماءهم الواحد تلو الآخر. ومن يومها دأبت النساء، وخاصة العجائز، على زرع الجبن والتهيب في قلوب الأطفال حتى صار الارتعاد فطرة النفوس!

ويحكى أن بوغظاط قد تسلق صدر جد الطويريين الأول أثناء نومه، فخنقه ومنعه من الصراخ والكلام والحركة طيلة حياته المديدة!

ويقال بأن بابا عَيْشور سيأتي قريباً، وسيوزع في عاشوراء الهدايا والحلوى على الأطفال، وأن ما يتوجب على الصغار فعله هو الانتظار والاعتقاد الراسخ بجميئه وإن طال الأمد!

وقد اعتاد أهل الطويرية تناقل هذه الأخبار والقصص، والسباحة في يمها الرحب. وكانوا كلما فعلوا ذلك تملكهم الخوف، واجتاحهم الفخر والحنين!

بحلول صبيحة اليوم الثالث، اشراّبت الأعناق باتجاه غرفة والدي. كما لوحدنا، أقصد أفراد الأسرة الصغيرة، أمي، وأختي فاطمة الزهراء وزوجها، وأختي زينب وزوجها، وأخي رضوان وأنا. وكان اقتراح فتح باب غرفة والدي في هذا اليوم تحديداً قد أتى من أمي، مصحوباً بإصرار شديد منها لا يقبل التنازل أو النقاش. تناولنا وجبة الفطور وعقولنا سابحة معلقة بأهداب باب الغرفة عند سطح المنزل.

- ترى ماذا يوجد خلف الباب؟ هل صحيح ما تناقله أهل بلدتنا عن كون والدنا قد اكتنز في غرفته الذهب والفضّة وأموال لا حصر لها، جمعها من خلال تجواله في بلدان شتى!

هكذا تساءلت، قبل أن أجيب نفسي:

- صحيح أنه كان كثير التجوال، فحتى بصمته الخفيف كان يسبح في عوالم لا يعلمها إلا الله وهو، لكن أن يكون قد جمع المال، فهذا ما لست على يقين منه.

أما كيف استطاع أن يمنع الجميع، بمن في ذلك زوجته، من دخول غرفته مدة تزيد عن الثلاثين عاماً، فهذا هو ما كان يشعرني بالحيرة الشديدة والعجز المطلق!

وقد أخبرتنا أمي أنها حاولت ذات مرة ولوج الغرفة من بعده، فزهرها بقسوة ومنعها من ذلك، مشدداً لهجته معها إلى درجة فاقت الوضوح. حركة واحدة منه كانت كافية لتتوارث بعد ذلك عدم التفكير في الاقتراب من غرفته مطلقاً!

سحبت أمي الكرسي إلى الخلف، فانتصب الجميع واقفاً، لقد تكأ على أهبة الاستعداد! وبحركة حازمة منها نهبت الصغار، وأشارت إليهم بالبقاء وعدم اللحاق بنا إلى سطح الدار. تقدمت الموكب الصغير وفي يدها مفتاح الغرفة، فلحقنا بها بخطى واثبة وقلوب وجلة.

- بسم الله الرحمن الرحيم. صدحت أمي، وقد أمسكت بيدها المزلاج.

فردّنا من خلفها بصوت مرتجف:

- بسم الله الرحمن الرحيم.

دار المفتاح دروة، فدورتين. توقف الزمن لحظتها، وتسارعت دقات القلوب. تدافعنا قليلاً. ضغطت أمي على الباب، فأترعت على مصراعها. ولجت أولاً، فولجنا من خلفها.

استقبلتنا رائحة مسك ممزوجة برطوبة خفيفة. أجلنا ببصرنا مطولاً نتفرس معالم المكان.

على جدران الغرفة علقت صورة ضخمة للعربي باطما وهو ساجح في نظراته التأملية، وصورة لأم كلثوم بمنديلها الشهير، وصورة لطفل صغير بكوفيته الفلسطينية يرفع شارة النصر عالياً، وصورة لأبي بهيئة لم نكن قد رأيناه عليها قط!

وعند الزاوية اليسرى امتد مكتب حديدي بكرسيّ دوّار، وضع فوقه جهاز كاسيت. وعند الزاوية اليمنى ارتفعت مكتبة مهيبة من أربعة أعمدة وثمانية رفوف.

وفي وسط الغرفة فرش بساط أمازيغي متوسط الحجم، وفوقه فردت سجادة مزركشة للصلاة، وبقرنها انتصب حامل خشبي يضم بين أحضانها مصحفاً كبيراً، ومنه تتدلى مسبحة طويلة.

تبادلنا نظرات ميتة، تسمرت أُمي في مكانها، ومثلها فعلت، بينما  
أطلق البقية العنان لضحكات مخنوقة!

\*\*\*

لقد أحسّ الجميع بنوع من الخذلان، وعلى رأس القائمة كانت  
أُمي. أما رضوان فظل يهزأ مردداً بين لحظة وأخرى:

- بوركت يا عمي العلمي الطويهري.. بوركت!

أما فاطمة الزهراء فما انفكت تردّد:

- رحمة الله عليك يا أُمي.. رحمة الله عليك.

وقد كانت المسكينة تمني النفس ربما بميراث عظيم يخلصها من  
سجن فقرها المدقع! وبدوري لم أنج من وقع المفاجأة.

وكان أُمي رجلاً من بلدة الطويهرة، بسيطاً جداً، يغيب للبحث عن  
اللقمة ويعود إلى أهله محملاً بالضروريات والكثير من الصمت.  
تلقى تعليماً عتيقاً في المسجد، حفظ القرآن الكريم كاملاً، واشتغل  
طيلة حياته فتيماً متنقلاً بين القرى والدواوير يؤذن ويؤم الناس في  
الصلاة ويعلم الصغار، مقابل مقدار سنوي من القمح والشعير.  
كان يغيب عن المنزل مدة تناهز الشهرين تقريباً، ويعود إلينا  
فيقضي معظم وقت إجازته معتكفاً في غرفته. وكان أحياناً يبقي

في المنزل لعدة شهور مكثفيا بخياطة الجلابيب، مهنته الثانية، قبل أن يجد مسجداً جديداً يقوم على شؤونه.

وقد حدثتنا أمي ذات مرة عن طفولته، وقالت بأنها كانت شاقة عنيفة، وأنه في شبابه غاب عن البلدة مدة طويلة، حتى حسبوا أن مكروها قد لحق به. وبعد أوبته تزوج بها، وهي بنت خالته، ومن عامهما الأول رزقا بأختي فاطمة الزهراء.

وفي السنوات الثلاث الأخيرة من حياته اكتفى أبي بالغزلة في غرفته، إلى أن وافته المنية.

أما عن طبعه وشخصيته فقد كان يتمتع بطبع أبوي جامد متبلد لا مبال: لا ينهر، لا يضرب، لا يعاتب، لا يقبل، لا يحتضن!

لقد كان قطعة جليد عائمة فوق سطح حياتنا.

طرقتُ عدداً لا حصر له من الأبواب، فاقتنعت بضرورة تدبير عمل فردي، وقررت أن أستعين بعربة لبيع الخضر والفواكه. خرجت من الدار فكانت مقهى السويقة غاييتي في أحد الأيام. وهناك أخذت لنفسي مكانا وجلست أرتشف قهوتي على مهل. كان الجو بداخلها صاحبا، مجموعة هنا تلعب الورق، ومجموعة هناك تلعب الضامة، ومجموعة تدخن الكيف، ومجموعة تستنشق طابا ويتبادل أعضاؤها بينهم كوزة مصنوعة من خشب داكن ومشبكة بنقرة منقوشة.

- رحم الله من حكها. صاح الأول، وكان يقصد طابا (النشوق / السعوط) ، قبل أن يضيف قائلاً:
- أما من غرسها فعظامه في جنة الخلد بحول الله.
- رحم الله حتى الحمار الذي نقل الروث إليها. قال

آخر!

- قبل أن بصيح بهم واحد من جماعة أهل الكيف بنبرة تهكم:
- رحم الله من قال: صاحب الكيف سلطان.
  - وصاحب السجائر وزيره. وصاحب النشوق قرّنان،
  - ما ينفك يصبّع على الناس من حوله!
  - لا شيء سأجنيه من هذه الزيارة. تيقنت من هذا، وقت
  - أغادر المكان.
  - دفعت الحساب للنادل، وقبل أن أنصرف جرت أن أستفسره:
  - أين يمكنني الحصول على عربية؟
  - عفواً!
  - أريد الحصول على عربية، فكيف السبيل إلى ذلك لو
  - سمحت؟
  - عند خروجك من هنا اسأل عن كيليو، حارس السوقية.
  - شكراً جزيلاً..
  - ...

\*\*\*

وكان كيليو نائماً تحت عربية مهترئة، إلى جانبه مذياع يصدح بالأغاني، وعلى مقربة منه كلبه الغارق في سبات عميق.

- كيليو! كيليو! ناديتُ عليه.  
فتحرك جسده تحت العربة، بينما لم ييرح كلبه مكانه!
- من؟ من هناك؟  
لم أضف كلمة، وبقيت أنتظر زحفه من مكانه. وما لمحي حتى  
وقف يعدل من هيئته.
- نعم سيدي بم أخدمك؟  
أتارتني ردة فعله، بيد أنني أخفيت ذلك، وقلت من فوري:  
- أنا بحاجة إلى عربة.
- فرّر كيليو يده على رأسه، وقال من وراء ابتسامة رائقة:  
- أفزعني يا رجل، فقد حسبتك ...  
كف لحظة ثم أردف:  
- لا يبدو عليك أنك خضار تائه.
- قال كيليو هذا، ثم انفجر ضاحكاً.  
سأيرته بابتسامة صفراء تصدح بما في قلبي من شفقة على حالي.
- قلت لي أنك تريد عربة؟  
- نعم.
- انظر حولك لجميع هذه العربات تحت تصرفك.

وكان من حولنا خمس عربات كلها في حالة سيئة جداً!  
 - انظر إلى هذه! يكفي تغيير عجلتها حتى تصير  
 جديدة تماماً. سأمنحك إياها مقابل ثمن زهيد،  
 مع إمكانية استبدالها بأخرى أفضل عندما  
 تتوفر، وسيتعين عليك حينها دفع الفارق بينهما  
 فقط.

كان كيليو على استعداد تام لأن يجعل من عربته المتأكلة سيارة  
 رباعية الدفع، ومن كلبه الأجرأ أسداً. وكنت على غير استعداد  
 للغوص معه أكثر في الحديث.

- هل تدبرت لنفسك مكاناً في السوق؟ سألني  
 كيليو بنجش.

- ليس بعد.

دنا مني وقال كمن يبوح بسر:

- ترافولتا هو من بيده مفتاح اللعبة، وإذا شئت  
 أخذتك إليه، وتوسّطت لك عنده.

- وما مفتاح اللعبة؟

- يزودك بالسلع، ويضمن لك مكانك في السوق.

- مقابل ماذا؟

- مقابل حصوله على ثلاثة أرباع الأرباح.

- ثلاثة أرباع!
- نعم.
- أثار الله درب من لقبك بكليوي يا ابن الكلب.
- انفجرت في وجهه، وعدت أجر أذبال الخبية!

\*\*\*

- لا تنزع يا عبد المجيد!
- ...
- سيفرجها ربك إن شاء الله
- إن شاء الله
- لدي فكرة، كانت تراودني منذ مدة.
- وما هي؟
- ما رأيك أن أجهز لك في كل صباح
- قدراً من البيصارة أو الحريرة، كما تشاء،
- مع خبز الشعير. واجعل من باب دار
- القايد مكان البيع، على أن نتدبر مكاناً
- آخر في إحدى المقاهي.
- !
- سأمنحك آنية بها الماء لغسل الزلفات
- الخزفية، ومغرفة طويلة، وكل ما أنت

بجاجة إليه...

- !

- أرجوك توكل على الله، وقوي عزمك

نجرّب حظنا. إني أهيب بك ألاّ تضعف

أو تستسلم.

\*\*\*

وقبلتُ بفكرة زائدة..

وسرعان ما ذاعت بين الناس جودة الحساء وخبز الشعير. وقد

عمدتُ بالموازاة مع ذلك إلى حياكة الملابس الصوفية وبيعها.

وبقيننا على حالنا تلك ما شاء الله لنا أن نبقي.



## الفصل الرابع:



كان صراخ أختي زائدة يتزايد بتصرم الدقائق!  
 وكنت عند الباب أرتجف خشية عليها. أما زوجها عبد المجيد  
 فكان جالسا في الأسفل عند النافورة يقرأ القرآن، ويقطع تلاوته  
 بين فينة وأخرى ليسألني بأعلى صوته:

- فطومة!

فكنتُ أطل عليه من الأعلى وأجيبه بحركة من يدي ورأسي أن  
 لا جديد، فيعود لتلاوته، وأعود لأشرب بعنقي إلى الداخل.  
 خرجت خالتي منانة، وهي من كانت تعني بزائدة، ومن خلفها  
 خالتي حنان.

- الحمد لله الوليد بألف خير. قالت خالتي حنان.

قبل أن تردّ عليها خالتي منانة واجمة:

- الوليدُ بألف خير والحمد لله، لكن زائدة ليست  
كذلك .

- ما بها؟ سألتها خالتي حنان، بينما تجمّد الدم في  
عروقي .

- عند قطعي للسرة بقي جزء منها متصل بالمشيمة .  
سأعود لذلك بطنها، وأنت أرسلني الصغار لطلب  
الخلاص .

- يا رب لا تعسّر خلاصها!

- أسرعي يا حنان! هيا!

وفي وقت وجيز منحنتني خالتي حنان الإزار الأبيض الرّدا، وفي  
وسطه وضعت بيضة طرية .

- فلتكوني على رأس الموكب ولا تسلمي الردا لأحد،  
عسى الله أن يفرج عن الزائدة المسكينة .

- حاضر!

كنتُ لم أضمّ بعد، وبذلك كان بإمكانني الخروج لطلب  
الخلاص للنفيسة، على عكس نرجس ومنية اللتان بقيتا  
دون أن يسمح لهما بمرافقتنا، فقد كاتتا قد صامتا في السنتين

السابقتين، نرجس في السنة الأولى، ومنية في السنة الثانية. انطلقت من باب دار القايد، مرفوقة بهدى بنت أختي زائدة، وسوسن وياسمين ورجاء. بيد أنه سرعان ما انضم إلينا كل من صادفناه من أطفال، فطفقنا نجوب الدروب والأزقة ونحن نصدح بأعلى أصواتنا:

أ نفيسة طال بها النفاس ..

يا ربي واعطيها الخلاص ..

بجرمة طه ويس ..

والقرآن الحكيم .

...

أ نفيسة طال بها النفاس ..

يا ربي واعطيها الخلاص ..

بجرمة طه ويس ..

والقرآن الحكيم .

...

كان الناس يرمون لنا بالدراهم في الإزار تبرّكاً، وكانت عيني لا  
تفارق البيضة، أما قلبي فكان يهتف بحرارة:

- انقلقي أيتها البيضة الجميلة من أجل خلاص  
ص أختي زائدة! انقلقي!

ولا تنفلق!

فعود للصراخ:

أ نفيسة طال بها النفاس ..

يا ربي واعطيها الخلاص ..

بجرمة طه ويس ..

والقرآن الحكيم .

...

نحصل على قطعة نقدية. أرقب البيضة وأرجوها أن تنفلق، فلا  
تنفلق!

ثم نعود للصراخ:

أ نفيسة طال بها النفاس ..

يا ربي واعطيها الخلاص ..

بجرمة طه ويس ..

والقرآن الحكيم .

...

أ نفيسة طال بها النفاس ..

يا ربي واعطيها الخلاص ..

بجرمة طه ويس ..

والقرآن الحكيم .

...

وبقينا على حالنا ما يقرب الساعة، فجاءت البشرى بعدها.

لقد انفلقت البيضة أخيراً!

جمعتُ الإزار بحركة عصبية، فعدنا نترأض إلى الدار. وعند بابها  
استقبلنا زوج أختي عبد المجيد بالابتسامة العريضة، والتين المجفف  
والتمر.

قطعتُ أختي زائدة كل السبل، ومنعت جميع مظاهر الاحتفال بيوم  
العقيقة.

كان يوماً شاقاً علينا جميعاً في حقيقة الأمر، ففي مثله فقدنا أمنا في  
حادث مأساوي ساقه القدر إلينا فرضينا به.

كانت أختي زائدة قد أنجبت ابنتها هدى، وكان قد تقرر أن نحتفل  
بالعقيقة في منزل والداي. ودّعنا عمي المعطي وخالتي طامو، تاركين  
أمر المزرعة لهما، على أن يعود زوج أختي عبد المجيد في غضون يومين،  
ونبقى أنا وزائدة إلى أن تماثل للشفاء.

كان الفرح والسرور يغمران الجميع، وكان الاستعداد قد بلغ درجاته  
القصوى مع حلول صبيحة يوم العقيقة.

وبينما نحن متعلقون حول الكبش نحاول اقتياده لمكان الذبح، ذهب

أمي لجلب الماء من البئر المحاذي لدارنا. وكان هذا الأخير يشهد عملية بناء  
الأدوار، أي أنه كان مستويا مع الأرض، بلا سور واق، لذلك كانت  
أمي تلحّ على جلب الماء منه بنفسها حرصا على سلامتنا!

لكن شاء الله أن تكون هي الضحية.

عذراً!

لا أستطيع التحدث في هذا..

عذراً!

تزوج أبي بعد وفاة أمي بشهور قليلة. وكان زواجه السبب الرئيسي في زواجي أيضاً.

ففي إحدى العطل كنا قد جئنا لزيارته وزوجته. وكان ذلك بعد سنوات من وفاة أمي رحمة الله عليها.

وصادف في تلك الزيارة أن التقينا بأخت زوجة أينا، كانت هي الأخرى قد جاءت لرؤية أختها وإحياء صلة الرحم معها. لتتفاجأ بعد أسبوع بجيئها، مع بعض أفراد أسرتها، لخطبتي!

- قصدتهم فملت غايتي، والآن جاء الدور علي لأرد الصنيع بأحسنه.

قال أبي صارخاً بأعلى صوته في وجه أختي زائدة، بينما كنت واقفة أرتعد وأسترق السمع في الغرفة المحاذية.

- ولكن رد الجميل لا يكون بتزويج الفتاة غصباً عنها!
- كفى لغوا! إنها ابنتي وأنا أعلم الناس وأشدّهم حرصاً على مصلحتها.

انسحبتُ أختي زائدة تجتر خبيتها، بينما لبثت زوجة أبي على موقفها الجامد تراقب الوضع عن كثب!

مرّت استعدادات العرس في أجواء كثيبة بلا طعم.

لم أكن أريد هذا الزواج، ولم أكن أريد أن أسكن في دوار معلق عند عنق الجبل، خاصة وأنني كنت قد ألفت الحياة شبه الحضرية في بلدة الطويهرة، ولا خبرة كبيرة كانت لدي في تدبير شؤون الحياة البدوية. لكن ما اعتبره الآن كان نقطة مضيئة في خضم كل ذلك هو المواضيع والنقاشات الممتدة التي ما برحت أختي زائدة تفتأني فيها.

لقد شرحت لي كل ما يتعلق بالحياة الحميمة بين الرجل والمرأة، بما في ذلك أدق التفاصيل، بدون تحرج. ولكم ذكرني ذلك بما بسطته لي وشرحته قبيل بلوغي مرحلة الحيض!

مكرهةً وصاغرةً وجدتُ نفسي أغادر بيت والدي، وأعانق بيت الزوجية. لم أحس باليتم وألم فقدان الأم كما أحسست لحظتها، بالرغم من أن مكان الأم يبقى شاغراً على امتداد العمر.

بلغت السيارة التي كانت تقلني وجهازي عتبة البيت الجديد، فتحلق حولي أهل العريس وضيوفهم، واستقبلوني بالزغاريد والتمر والحليب، وعلى ظهر فرس زفوني إلى عريسي!

ولما دلفت إلى غرفتي، أتعثر في كسوتي، وجدت زوجي سليم في الانتظار. حدجته بنظرات وجلة وفوق السرير جلست، والحياء قد ملك علي أمري. فران في الأجواء صمت رهيب، قطعه هو قائلاً:

- لماذا جئتِ إلى بيتنا؟

فقلتُ وقد تلجلج لساني، وامتنع لوني:

- جئتُ فقط..!

\*\*\*

كان ذلك أول حوار دار بيننا..

وعلى عكس والد زوجي الذي كان طيباً حنوناً، فقد كانت أمه عجوزاً شمطاء، لا تترتاح ولا تريح العباد. لقد كانت على دراية كاملة بأني لا أفقه إلاّ النزر القليل من أمور البيت القروي. ومع ذلك، ومنذ الأسبوع الأول أخذت توكل إليّ أصعب المهمات، وتخطبني بنفور، وتنعني بأبشع الصفات!

لم يطل بنا المقام هناك كثيراً، إذ سرعان ما تعقد الوضع وتأزم بشجار زوجي المتواصل مع أمه. كانت كثيرة التذمر من كل شيء أفعله. وكان هو يقف في وجهها محاولاً إقناعها بأنني بحاجة إلى بعض الوقت للتأقلم. معبراً في الآن عينه عن امتعاضه من كبحها أخواته أن يبسطن يد العون لي، ومن لسانها السليط ودعواتها عليّ بالجذري وتاجروت وبوزلوم والسل...!

- ما هذه المصيبة! لقد أخذوا مالنا وأعطونا عاهة! هل هذه هي العروس التي يدفع من أجلها المرء ماله! ما هذه المصيبة يا ناس.. أغيثوني!

هكذا كانت تعلق على ما أقوم به في معظم الوقت. لكنها لم تقف عند الحد، فبتصرم شهر تقريباً بدأت تحرص، وبشدة، على بقائنا بالجوع فارضةً منطلقاً بشعا على كلينا وهو الانبطاح والعمل مقابل الغذاء!

والحق أنني وزوجي لم نكن خاملين عالة عليهم، بل كنت أجهد وأسقى، وأحاول أن أتعلم وأتأقلم، وأبذل فوق طاقتي. في الوقت الذي كان هو يقوم بكل المهام الشاقة خارج البيت.

ومع ذلك لم ترض عنا!

صرتُ أنهض كل صباح لأجدهم قد تناولوا وجبة الفطور وتفرقوا!

مقهورة كنت أرجع إلى غرفتنا، فيسألني زوجي ما إذا كانوا قد كروا فعلتهم الشنيعة؟ وغالباً ما كان يحصل على الجواب من دموعي المنهمرة، فيخرج قاصداً بيت عمه في الجوار، ومن عند زوجته كان يحضر لنا ما جعلنا نبقى أحياء مدة ثلاثة أشهر.

- سنهرب من هنا غداً قبل طلوع الشمس.
- ماذا تقول!
- قلت لك سنهرب قبل طلوع الشمس.

تفرّست محتويات الغرفة، الدولاب والصينية والبراد وعلبة الكؤوس والبطانية والسرير والأغطية والملابس، قبل أن أجيبه:

- وأغراضنا؟
- احمل الحليّ فقط واتركي الباقي.
- لكن..
- سأعود لأخذها فيما بعد..
- ...
- أعدك.

وأخذت الحليّ فقط، ثلاثة دمالج وخاتم الزواج، وهربنا قبل امتداد لسان الصباح!

كنت أعتقد أن زوجي سليم قد رسم خطة ما نسير على نهجها. لكن سرعان ما اكتشفت، ونحن نجري انحدارا نحو الطريق الوحيد الذي يصل الدوّار ببقية العالم، أنه لا يعلم حتى إلى أين نحن ذاهبان! بالنسبة له كان يعرف ممّا نحن هاربان، وهو كافٍ.

- لا أستطيع المضي أكثر!  
 - لم يبق الكثير يا فتومة! اليوم هو يوم السوق الأسبوعي في البلدة المتاخمة لنا، وقریباً نصل الطريق ونجد من يخرجنا من هذا الجحيم.

...  
 - فلنترح قليلاً.. لا بأس.

جلست فوق صخرة صغيرة ألتقط أنفاسي، فأقعى سليم قبالي.

- كل شيء سيكون على ما يرام..
- دعنا نعد أدراجنا يا سليم.. أرجوك!
- لن نفعل! لن أدعك تموتين جوعاً هناك!
- ربما تعاملنا والدتك بشكل أفضل مستقبلاً؟
- بقاؤنا هناك خطيئة كبرى.. صدّقيني أنا أعرف
- والدي جيداً.. لا مستقبل لنا هنا، إنني أتحمّل وزرك
- يا فطومة، عليك أن تفهّمي هذا الأمر جيداً.
- إلى أين سنذهب؟
- قلت لك لا أعلم.
- !
- لا أعلم الآن، لكنني سأعلم بعد أن نخرج من هنا.
- لا شيء أقسى في الحياة من التيه. هذا ما ارتد إلى دواخلي في تلك
- اللحظات.
- هل أقترح على سليم أن نعود إلى بيت والدي، وهو من زجّ بي
- وسط هذه الفوضى؟
- هل أحملّ المسؤولية الكاملة وأضعه أمام نتائج قراره؟
- أم أقصد بيت أختي زائدة في بلدة الطوبهرة، بحكم أنها أختي وأمي
- وسندي...؟

هذا ما طفق يمور في طويتي ونحن نواصل الانحدار، والالتفات  
خلفنا بين الفينة والأخرى.

\*\*\*

وصلنا بيت والدي مع غروب الشمس في حالة اندهش منها أبي  
وزوجته!

كان التعب قد أخذ منا كل مأخذ، بعدما قطعنا أزيد من خمسة  
عشر كيلومترا سيراً على الأقدام قبل أن نصادف سيارة متجهة إلى  
السوق.

- ما بكما!

قال أبي باندهاش، وهو يستقبلنا عند الباب.

- دعهما يلجان أولاً يا رجل! ألا ترى حالهما؟

- ادخلا! ادخلا!

ودخلنا..

مُنحنا ماء وطعاما على عجل، فتمددت بلا حراك، وإلى جانبي قعد  
سليم مداريا تعبته ونجمله!

وما إن شعرت ببعض الراحة تسري في أوصالي حتى انفجرت

باكية أحكي مرارة ما كابدها طيلة الثلاثة أشهر الأخيرة.  
 طأطأ أبي رأسه، وقد أدرك فداحة ما اقترفته يده في حقي.  
 وانسحبت زوجته تعدّ العشاء، نخرج في إثرها ابن أختها، أقصد  
 زوجي سليم.

- ما كان عليّ أن أرميك في هذا القهريا صغيرتي. قال  
 أبي بصوت متهدّج.

رفعتُ نظري غير مصدّقة ما سمعته أذناي!

- أرجوك ساعيني يا ابنتي..

- !!!

- ساعيني...

كدتُ أن أضحك من شدة الفرح!

كدتُ أن أغفر لحماتي لأنها كانت سبباً في هذه اللحظة العظيمة!

- لا تقل هذا الكلام يا أبي أرجوك، فنحن لا  
 نختار أقدارنا.

قلتُ هذا، وقد ابتسمت من خلال دموعي، فارتميتُ في حضن  
 والدي كما لم أفعل من قبل، ولا من بعد!

في اليوم الموالي سمعت بائع حلّي متجول ينادي بأعلى صوته:

- ذهب للبيع! خواتم للبيع! دمالج للبيع!

فعلتُ ما يتوجب عليّ فعله في ظل هذه الظروف. ناديت على زوجة أبي، وقلت لها:

- من فضلك أوقفني بائع الحلّي! أريد أن أبيع دملجا.

- دملج!

- أرجوك الحقيه قبل أن يذهب!

كان الثمن الذي اقترحه بائع الحلّي بخساً أمام الثمن الذي اشترت به الدملج، ومع ذلك بعته غير آسفة عليه.

ومع عودة زوجي سليم وجدني في انتظاره على أحر من الجمر.

- خذ هذا المال وتدبر به أمرك!

- ما.. ماذا؟

- قلت لك خذ وتدبر أمرك.

ثم بصوت خافت أردفت:

- لا مكان لنا هنا.

- ولكن من أين حصلتِ على المال؟

أزحت الكُمر عن معصمي، وقلت:

- بقي اثنان.. وهما تحت أمرك أيضاً.

بشدة عانقني سليم، قبل أن يصيح بي:

- لا حرمني الله منك يا فطومة.. لا حرمني الله منك...

...

- فاس.. سأذهب حالاً إلى مدينة فاس.. وسأعود

لاصطحباك قريباً بحول الله.

\*\*\*

وكذلك كان..

غاب سليم مدة أربعة أيام، وعاد من أجلي.

عند الباب أمطرته زوجة أبي بوابل من الزغاريد.

- مبارك.. مبارك.. ادخل! ادخل! فطومة حامل!
- ادخل! إنها تستريح في الغرفة.
- ماذا تقولين؟
- إنها حامل. لقد لاحظت شحوب وجهها، وكثرة قيئها، فعمدت إلى التأكد من ظنوني، وكان شكي في محله.

ألقي سليم ما كان بيده، ودخل مهرولاً، إلا أنه اصطدم بوجود أبي معي في الغرفة، فاكتفى بإلقاء التحية. وبدوره اكتفى أبي بمباركة خفيفة، وراح يسأله:

- كيف سارت الأمور معك؟
- كل شيء على ما يرام يا عمي.
- صمت أبي يسأله المزيد من التوضيحات، وكأنه كان يحرص على عدم تكرار الخطأ السابق.

- لقد اكرتتُ شقة صغيرة، وقتت بتهيئتها بما يلزمنا من حاجيات، أما العمل فسأتدبر أمره فور وصولنا.
- أخبرتني خالتك أنك تجيد صناعة الفخار.
- صحيح.. لقد سبق وامتهنت هذه الحرفة في طفولتي.

- سيكون تذكر أسرارها هيناً عليك الآن؟
- وهو كذلك يا عمي.
- توجه أبي بكلامه إلى زوجته، فخاطبها قائلاً:
- جهزي لهما مؤونة من الزيت والطحين والعدس  
والفول والحليب والزبدة والعسل.
- كثر الله خيرك يا عمي.. كثر الله خيرك. دمدم  
زوجي، فصحت من بعده:
- أدامك الله تاجاً فوق رؤوسنا يا أبي.
- أخبرني أخاك أن يجهز الحمار ويساعدك على  
حمل المؤونة (وكان يقصد أخي غير الشقيق  
بلال)، ولا يدعك  
حتى تركبا الحافلة. هتف أبي وهو يغادر.
- حاضر يا أبي.. حاضر. قلتُ وقد تبرعم الفرح على  
وجنتي.

\*\*\*

قريباً من الساعة الرابعة بعد الظهر كنتُ أقفُ عند باب الغرفة  
الوحيدة، وكانت هذه الأخيرة توجد عند سطح مبنى مؤلف من

أربعة طوابق.

أجلتُ ببصري أتفرس معالمها. كانت متوسطة الحجم، مطلية  
الجدران بلون أزرق داكن، وتضم مرحاضاً صغيراً يخفيه بابها  
عندما يفتح.

- هل هذه هي الشقة يا سليم!

تساءلتُ بقلب واجف، وقد تخلى عني إدراكي لحظتها إلى  
وجهة مجهولة.

- دعينا ندخل ما جلبناه معنا أولاً يا فطومة. ساعديني!

تعاوناً على إدخال المؤونة معاً، فعدتُ إلى طرحي سؤالى السابق،  
والغبن يشرب من عروقي:

- هل هذه هي الشقة التي أخبرتنا عنها؟

فقال سليم بتبرم حزين:

- لم أجد أفضل منها يا فطومة!

- وأين هي الأغراض والتجهيزات التي تكلمت عنها؟  
لا أرى هنا سوى سرير وصحن وملعقة! قلتُ وقد  
صهرني الغم.

صفتن سلیم قلیلاً، ثم تتم بصوت لا یکاد یسمع:

- هذا ما استطعت فعله بالمال الذي كان بحوزتي،  
أدیتُ واجب کراء شهرین، واشتریت السریر.

جلست بلصق الحائط، فأخذني سلیم من یدی وأجلسني على  
طرف السریر. تنهّدت بعمق وأسف، قبل أن أقول وأنا ساهمة  
النظرة:

- خذ هذا الدمليج واشتري لنا ما يلزم.

فطلّ سلیم ذاهلاً صامتاً لا یطرف.

طلبتُ من سليم أن يزور أختي زائدة ليطلعها بمكان سكنا، وبأنني حامل. وشددتُ عليه أن يطمئنها بأننا بألف خير، ولا نحتاج إلا أن تكون وأفراد أسرتها بخير. دون أن يفوتني طبعاً أن أبعث معه سلامي الحار لكافة قاطني دار القايد.

وكانت جارتني الجديدة رحمة قد أعطتني كلمتها بأنها ستقضي الليلة معي، إلى أن يعود زوجي سليم من بلدة الطويهرة، قائلة:

- يستطيع زوجي أن يقضي ليلة واحدة بمفرده،  
لكن ليلتان لا أعتقد!

فضحكنا وشكرتها على محبتها الغامرة وحسن معاملتها لي.

\*\*\*

- قصة زواجي الأول تتقاطع مع قصتك في عدة نقاط

يا فطومة.

صاحّت بي جارتي رحمة، قبل أن تضيف:

بعءما أنجبت ابني سافر زوجي إلى المءىنة، وهناك كان يشتغل. وحتى يكون قريباً من مكان عمله اكترى شقة صغيرة هناك، وأخذ يؤوب إلنا عند نهاية كل أسبوع.

رجوته أن أتقل إلى العيش معه بمعية ابننا. وم كانت رغبتى كبيرة فى ترك الحجم الذى كنت أأترق بين جدرانہ! غير أن جمیع محاولاتي باءت بالفشل الذريع، فأصراره على بقائى مع والديه كان كبيراً. وبإذعان استسلمت لمشيئته، وشرعت أءاوى جراحى بالبلسم الذى منحنى إياه الله تعالى.

ذات يوم، وبينما كنت جالسة أستمتع بمنظر غروب الشمس فأجأتنى إحدى جاراتنا بظهور حسبت له حسابا دقيقا.

ءنت منى وبصوت هامس قالت:

- سأكون صريحة معك يا رحمة، فأنت عزيزة على فؤاى كما تعلمين.

فسألتها وأنا أحس بمثل ونز الإبر فى قلبى:

- ماذا هناك يا بهيجة؟

التفتت بهيجة في جميع الاتجاهات تمسح المكان بنظرات فاحصة،  
ثم ردت بنبرة من ييوح بسر عظيم:

- زوجك يخونك مع امرأة أخرى.

فناولتني ورقة صغيرة، وأضافت:

- هذا عنوان سكنهما. لقد رأهما زوجي معاً في أكثر  
من مرة.

غاص قلبي عميقاً بين ضلوعي. أطرقتُ وذَهَبَتْ بي الخواطر  
مذاهب شتى، وبقيت شاردة الذهن ما شاء الله لي أن أبقى.  
بحرقة لاذعة أنشأت أرقب مجيئه عند نهاية الأسبوع، وتحت  
مقصلة الانتظار تصرم الوقت عصيباً بطيئاً.

واجهته بالحقيقة فأبرق، وأرعد، وأمطر. وكان ظهري الأرض  
الخصبة التي امتصت ماء غيم الغضب المنهمر. أما أهله فأصاب  
العمى عيونهم، والصمم آذانهم، والجمود قلوبهم.

كنتُ أعلم علم اليقين بأن معركتي شرسة ممتدة في الزمن، تحتاج  
مني صبراً عظيماً وتجلداً.

وكان التحدي الأول الذي واجهني هو توفير ثمن الرحلة من القرية، حيث فرض عليّ العيش، إلى المدينة حيث يقيم. والجيد في الأمر أن المسافة بينهما كانت قريبة، وثن الرحلة كان زهيدا. ولتوفيره عمدت إلى جمع بيض الدجاج وبيعه لصاحب الدكان الوحيد المتواجد في القرية اللعينة، وكانت بهيجة من ساعدتني على ذلك.

قرعتُ الباب، وبقلب خافق بقيت واقفة أنتظر أن يفتح. وفتح على وجه سيدة تطرد بقايا النوم، وتتايل بغنج في لباس نوم خفيف. حدجتها بنظرات ثقابة، وركلت الباب بعنف، فولجت إلى الشقة. وعلى أريكة قريبة وضعت ابني، فهجمت عليها كما يهجم الباشق على فريسته.

وما كان من زوجي العزيز، بعدما اتصل به حارس العمارة وأخبره بما يجري، إلا أن أشبعني ضربا وركلا ورفسا، فأوفى لي المكيال وانتصر لعشيقته.

وفي عز الشعور بالانسحاق والظلم صرخت في وجهه، وأنا أمسح الدمع الذي تساقط على خدي:

- طلقني! طلقني! أطلق سراحي أيها النذل النتن!

فردّ والسيجارة ترتعش بين أنامله:

- ذلك يوم لن تبصره عينك أبد الدهر.

فقلت، وأنا أكفك دموعي، بصوت أودعته كل ما في نفسي  
من مشاعر:

- ستعيش لترى أيها النّجس.

ثمّ احتضنت ابني وانصرفت.

لقد قطعْتُ وعداً، ووعدني سياج أطوق به رقبة من أهاني  
وذمني. قصدت أختي القاطنة بالعاصمة، وهناك تضرعت إليها  
أن تعينني على إيجاد عمل يمكنني من بلوغ غايتي المنشودة. فلم  
تتوان شقيقتي في ذلك، وسرعان ما بدأت الاشتغال كخادمة عند  
إحدى العائلات الغنية. أطلعهم بأني أم لطفل رضيع، فتفهموا  
الأمر ومنحوني غرفة مستقلة عن باقي الخدامات. وهؤلاء الناس  
الأخيار لن أنس صنيعهم إطلاقاً.

وبسلاسة ويسر اندمجت في حياتي الجديدة، وأخذت أوفر كامل  
راتبي، ولا أذهب يوم عطلي الأسبوعية إلا عند أختي وأسرتها.

جمعت قدراً محترماً من المال، فزرت محامياً وأمامه بسطت  
خيوط قضيتي. ومنذ تلك اللحظة باشرنا باتخاذ الإجراءات القانونية  
اللازمة، وكان شرطي الوحيد أن أحتفظ بابني.

وبمرور بضعة أشهر كنت قد تحررت من براثن زواج فاشل  
أضنى جسدي، وأرمرض قواي النفسية. وكما يكسو فصل الربيع  
أشجار اللوز بالأوراق الخضراء الغضة وبالأزهار القرنفلية اللون،  
فقد أينعت وأزهرت. ومن زاوية نظر مختلفة صرت أرى الحياة  
وأعيش تفاصيلها موزعة بين التفاني في عملي، والزهد في رعاية ابني  
وتريبته.

وتوالت الأيام على وتيرة واحدة إلى أن طرق الأمل بابي من  
جديد.

وبينما كنتُ مستلقية أستريح من تعب يوم عمل طويل، عرفت  
فيها الفيلا أشغالا كثيرة، جاءني صاحبها، فقالت لي:

- رحمة! أعلم أن التعب قد نال منك، وعليه لن  
أطيل عليك.

- تفضلي أنا تحت أمرك!

- ابقِي حيث تتمددِين أرجوك، لست بحاجة إلاّ  
لدقيقة واحدة من وقتك.

- تفضلي!

- لقد سألني عنك خياط الأفرشة الذي زارنا  
اليوم.

- وماذا يريد؟
- قصده شريف حسب ما أبداه لي.
- أظنه قد تأخر كثيراً.
- لا تقولي هذا الكلام يا رحمة!
- وماذا ترين أنت يا سيدتي؟
- أولاً، وكما اتفقنا سابقاً، أنا لست سيدتك.
- عذراً.. لا تؤاخذيني أرجوك!
- لا بأس..
- وماذا ترين أنت؟
- أرى أنه من الصواب منح نفسك فرصة
- أخرى، فأنت ما تزالين شابة، وجميلة...
- لكنني امرأة مطلقة وأم لطفل!
- صارحيه بوضعك ودعيه يرى ما يناسبه. أما أن
- تغلقي الباب من الأساس فأنا لا أتفق معك.
- وصارحتهُ بأنني مطلقة، وبأن لي ابناً أيضاً، فلاحت معالم عقبة
- عسيرة في الأفق.
- كانت العقبة هي والدته التي أكد لي بأنها ستعارض مبدئياً
- زواجنا. إلا أن الموت حرك جنده فأراح الجميع، وعلى عجل أخذها
- إلى جوار زوجها الميت منذ عقد من الزمن.

وبخلو الطريق من المطبات تزوجنا، ورزقت منه إلى حدود الساعة  
بابنتين.

7

- خالتي فطومة.. خالتي فطومة.. لا أعلم ما الذي  
أصاب ابنك فريدا!

ألقيتُ ما كان بيدي أرضاً، فهرعت نحوك مرتاعة، ولما ولجت  
الغرفة تفاجأت بك تتخبط كسمكة قد طلقت الماء لتوها.

- إليّ بكوب ماء!

هكذا نهرتُ يوسف، ابن جارتِي رحمة، وقد ملك الخوف عليّ  
أمري فهز كيانِي هزاً منكراً، حتى إذا أحضر إليّ كوب الماء، أمرته  
أن يذهب في إثر والدته.

وفور وصولها عاينت مشهدك بضع ثوان، فإذا بالذهول يعتريها  
هي الأخرى من رأسها حتى أحمص قدميها، بيد أنها سرعان ما  
استجمعت قواها، وصرخت في وجهي قائلة:

- أحضري بصلة والقليل من الملح! هيا أسرع!

إلى الغرفة دلفتُ متعثرة الخطى، فعدتُ ومعِي حبتا بصل وحفنة

ملح. ناولتهم لرحمة، فتقهقرتُ للخلف، وعلى مقربة منك ظللت أراقب ما يجري لك، وقد ارتعشت أعماقي بالكرب، فأنا لم يسبق لي قط أن رأيتك على ذلك النحو الغريب!

أما رحمة فأخذت تحك أنفك بإحدى البصلتين، وأنت غائب عن الوعي لا تجيب ولا تستجيب!

تسارعت دقات قلبك، واختفى البؤبؤ من عينيك نهائياً، فطفقت تخور كعجل مذبوح والعرق من جبينك يتصبب بارداً. ولما انقضى ربح من الزمن أنشأت أطرافك ترتخي حتى قفرت وهدأت، فغطت في نوم عميق.

إنّ الوسن الذي انتابك خلصني نسبياً من الحال السيئ الذي كنت عليه، فأنحيت أرساً على ركبتني، وأخذتك بلطف من بين يدي رحمة فضممتك، حتى إذا دسستك في حضني، انهمكت أمسح براحتي على جبينك، فشرعت بهم أنفوس وجهه الملائكي، ثم قلت وأنا أنهج بدموعي:

- يا ليت الذي أصابك أصابني يا حبيب أمك!

والحق أن لا شيء يقهر الأم كمثل معايتها للخطر، وهو يحوم بجناحيه القدرتين حول صغارها، فهي تُؤثر أن تصاب بجميع مكاره الدنيا، على أن تمس شعرة واحدة فلذات كبدها بالسوء.

ربتت رحمة على كتفي، نخطبتي بنبرة دافئة:

- إن شاء الله سيغدو بألف خير، فأرجوك أن تدعيه  
يرتح قليلاً!

قالت كلماتها، فقامت تطوف البيت ركناً ركناً، وهي ترش الملح،  
وتردد كلمات غريبة بصوت قريب للغمغمة!

وفي الليل علم والدك المنهك بالذي حدث لك إبان غيابه نهاراً. ولم  
أكد أفرغ من كلامي حتى دعاك بصوت محتجج:

- فريده.. فريده.. تعال يا بني!

ولما مثلت بين يديه، تلقاك باسماء، فأجسك على ركبته في رفق،  
وراح يحيطك بنظرات فاحصة، وقلب منقبض. ثم سألك بصوت  
تعانقه نبرات الاستعطاف:

- هل أنت بخير يا بني؟

أومأت برأسك نعم.

فقال والدك بلهجة أمرة ممزوجة بالعطف والحنان:

- عد، فأكل لعبك يا صغيري!

عدت للعب بقربنا، فعدت لاستئناف حديثي من حيث توقفت:

- أتعلم ما الذي قالته لي جارتنا رحمة؟

- ما الذي قالته؟

- فريد مصاب بمس شيطاني؟

هكذا قلتُ لوالدك، وانطلقتُ أبسمل وأستعيز بالله من الشيطان الرجيم.

أما هو فتفاجأ من حديثي، وقال مستغرباً:

- أ تقولين الجن يا امرأة!

أخففتُ من حدّة صوتي، وانطلقتُ أبسطُ له الأمر مفصلة تفصيلاً تاماً:

- هكذا قالت رحمة، فالذي حصل لفريد سببه الجن

والعياذ بالله، ومن المرجح أن يكون قد سكب ماء ساخناً في

المرحاض!

- لم تسأليه إذن؟

فسارعتُ إلى الردّ من دون إبطاء:

- بل سألته، وهو لا يذكر.

- وما رأيك في قولها؟
- رأيي أن نقصد الرجل صاحب البركة، الذي حدثني عنه، وفي أقرب وقت ممكن.
- تفحصني والدك بعينين ثابتتين، وقال:
- ومن يكون هذا؟
- فقلت، مرددة كلام جارتني رحمة حرفياً:
- رجل مشهود له بالكفاءة في التعامل مع الجن.
- ثم أردفتُ، وقد أجهشت بالبكاء:
- يا مصيبيتي أنا إذا تغلغل هذا الجني، وبسط سلطانه أكثر على ابني الصغير!
- لا وقت الآن للبكاء.
- هتف والدك، ثم همس بصوت مرتبك، وقد صدع لأمرني:
- وهل عندك فكرة عن تكلفة الزيارة؟
- توقفتُ عن البكاء، حتى يتسنى لي الحديث بنبرة واضحة وصوت لا تشوبه شائبة، فقلتُ:
- تقريباً لا تكلف زيارته شيئاً، فقد علمت من جارتنا رحمة

أن ديكايفي بالعرض .  
 - إذن توكلنا على الله، غداً صباحاً نتوجهين ...

وقبل أن يتم جملمته، قاطعته قائلة:

- غداً صباحاً، نذهب نحن الثلاثة. لا تقلق أبداً، لقد ربت  
 ورحمة كل شيء، وما كان ينقصني هو رضاك وكلمتك  
 الأخيرة.

فارتسمت على وجه أبيك ابتسامة رائقة، وقد أدرك متأخراً بأنه استدرج  
 استدراجاً لنهاية خطط لها سلفاً، وقال بنبوة المقتنع بقدره:

- طول عمرك نبيهة يا فطومة.. لا حرمني الله منك.

احمرّت وجنتي نجلاً، فطأطأت رأسي أرقبُ ديب النمل فوق الحصير.

وفي الصباح الباكر أيقظتك، وعلى عجل تناولنا فطورنا، ثم التحقنا برحمة،  
 وانطلقنا جميعاً صوب وجهتنا المنشودة.

إثر وصولنا، صادفنا صفاً طويلاً من المنتظرين، وهم يتأبطون عشرات  
 الديوك! وما إن استقر بنا المقام في ذيل الصف حتى سعت باتجاهنا امرأة  
 عجوز تتحرى إذا ما كانت بنا الحاجة إلى أحد الديوك. اشترينا منها واحداً  
 بالثمن الذي أرضاها، فانقلبت إلى مكانها، ترقب الزقاق وترصد القادمين

منه.

أمعنُ النظر في وجوه كان البؤس يعلوها ويمزقها، فحزن قلبي، وانقلبت  
مغمومة النفس، منقبضة الروح!

الكلّ كان يشربُ بعنقه شطر مدخل بيت صغير، كانت الوضاعة تطبعه،  
والبشاعة تحيط به من كل حدب وصوب، ورائحة البول تنبعث من  
الخراب الذي كان بجواره.

أما عند مقدمة الطابور، فتعالت الأصوات مبحوحة:

- نحن هنا منذ الصباح!
- ونحن كذلك! لقد أنفقنا ما يربو على الأربع ساعات،  
فدعونا ندخل أولاً عند صاحب البركة.
- وهل نترأى لكم بحال أفضل! إن وضع الطفلة يزداد سوءاً  
على سوء..

وقتذاك تدخّل رجل بغية إطفاء فتيل النزاع المحتمل، والظاهر أنه كان  
المسؤول عن تنظيم وترتيب موعد الدخول، فصاح بلهجة تفتقر إلى الكياسة  
واللباقة:

- لا حاجة لنا لكل هذا اللغو الفارغ، ليحترم الجميع دوره  
وكفى!

فعاد المتنازعون إلى أمكنتهم. أما عجلة القطار فما فتئت تتحرك ببطء حتى

جاء الدور علينا.

- سلموا أمركم لله ولأهل البيت!

صاح بنا الرجل الواقف عند الباب بصوت مجروح، وهو يلقي نظرة خاطفة فاحصة على الديك الذي منحته إياه.

- سلمنا أمرنا لله ولأهل البيت الكرام.

هتفتُ، ومعى رحمة، بينما أطبقت فك، واعتصمت بصمتك المعتاد ونظراتك تفيض استطلاعاً وفضولاً.

كان المنزل عبارة عن غرفة واحدة شاسعة مترامية الأطراف، تنتشر في أرجائها رائحة بخور شديدة. وكان صاحب البركة يتربع في صدرها، بلحيته المخضبة بالحناء، مرتدياً لباساً تقليدياً مغربياً أصيلاً، ومعمراً قبعة بلون لباسه الأخضر.

ومن يده اليمنى كانت تتدلى مسبحة عاجية الحب تبلغ الأرض طولاً. وعلى يمينه كان قد انتصب مجمر صغير، وطاولة وُضع عليها الكثير من الكتب، ومحبرة صمغ صغيرة، وبضع ألواح خشبية، وأقلام مصنوعة من القصب.

وقد كان الرجل صاحب البركة منهمكاً في الغمغمة والتحديث في ركن الغرفة الشرقي عند دخولنا، قبل أن ينطق بصوت مسموع، وهو يرمقك بنظرات تميل إلى العطف والشفقة:

- حتى هذا الملاك الصغير لم يسلم منكم ومن شركم!  
ثم أضاف قائلاً بنبرة أمر وانزعاج، متجهاً ببصره صوب المجرم الموضوع  
قرب مجلسه:

- ابتعدوا عنه الآن فهو في حمايتي!

لفظ كلماته الغريبة، فعاد إلى غمغمته السابقة وحديثه المبهم. ثم رمى جسماً  
غربياً في المجرم زاد من توهج شعلته وتصاعد دخانه.

وبحركة من سبأته أشار إلينا أن اقتربوا واجلسوا! فانصاعنا لأمره ودنونا.  
ولما استقر بنا الحال جالسين أمامه مباشرة على الحصير، قال وهو يسترق  
النظر:

- من منكما والدة الصغير؟

فأجبهته بصوت مرتجف خفيض:

- أنا يا سيدي.

فخصني بنظرة هادئة، ثم قال بنبرة أسف:

- وأين كنت عنه غافلة؟

أربكتني ملاحظته، فقلت محاولة الدفاع عن نفسي، دون نفي كلامه:

- يشهد الله أنني لم أغفل عنه يوماً، فطفلي هو شغلي الشاغل، وهو كل ما أملك.

فهتف صاحب البركة قائلاً:

- حفظه الله لك وأنته نباتا حسناً. لكنك يا أختاه قد أغفلت عنه، فتمكن منه جني شرير والعياذ بالله.  
- جني شرير!

قلتُ مرتاعة وقد أفرعني ما سمعت، بينما أخذت رحمة تبسمل وتبصق في جوف صدرها! قبل أن تسأله، قاطعة الوجوم الذي ساد:

- وما العمل الآن يا مولانا الشيخ؟

فأجابها الرجل بثقة، وعلى عجل:

- سأعطيكما ما سيشفيه بحول الله تعالى، ويخلصه من هذا المارد الشرير.

ولحظتها أخرج ورقة بيضاء، فتناول محبرة الصمغ، فقلها من القصب. وشرع يغمغم، ويخط بأنامل يده اليسرى رموزاً، وجداول أفقية وعمودية، ودوائر، حتى إذا فرغ من ذلك ترك الورقة تجف. ثم طواها بعناية، وغلفها بشريط لاصق.

- هنا الشفاء والعافية بإذن الله تعالى وبركاته. دمدم  
صاحب البركة، وهو يسلمني الورقة الملفوفة.  
فتسلّمتُ ما أعطاني، وأنا أبسمل وأرتجف.

- وما الذي أصنعه بهذا يا مولانا الشيخ؟

اعتدل الرجل في مجلسه، وقال لي:

- فور وصولك البيت إن شاء الله، انزعج الشريط  
اللاصق، فافتحي الورقة، وضعيها في صحن به ماء  
الورد حتى تختفي الكلمات جميعها. وناولي صغيرك  
ملعقة من الخليط، فواظبي على ذلك مرة في اليوم  
مدة شهر كامل. وهكذا سيشفى عزيزك بإذنه عز  
وجل.

صحتُ وقد داعب روجي نسيم أمل الشفاء:

- زاد الله من فضلك يا مولانا، وأدام بركتك بجاه حبيبه  
المصطفى.

- الفضل لله.. الفضل لله يا أختي.

هتف صاحب البركة، فعاد يرمقك بذات النظرات التي استقبلك بها،  
وقال موجها حديثه لي ولرحمة على حد سواء:

- إذا حدث وتكرر معه الأمر ثانية، فلا تنسها إحضاره إليّ  
ومعكم عذرة سوداء.

أومأنا برأسينا إيجاباً، فاستأذناه بالانصراف، وقفلنا عائدين وقد خارت  
قوانا من كثرة الوقوف تحت أشعة الشمس، ومن شدة الجوع.

\*\*\*

- فريد مصاب بمس شيطاني يا أختي!

هكذا قلت لخالتك زائدة، والتي كانت قد جاءت لعيادتك والاطمئنان  
عليك، بعدما علمت بالذي ألمّ بك.

فردت زائدة مستغربة:

- عن أي مس شيطاني تتحدثين!

- أكلمك عن الجنى الذي تمكن من حبيبي فريد!

- وما أدراك بأنه كذلك؟

- هذا ما بدا عليه الحال، وهذا ما أكده الرجل صاحب  
البركة أيضاً.

فقلت، وقد تقبض وجهها:

- ومن تراه يكون صاحب البركة هذا؟

- رجل من أعلم الناس بشؤون الجن وأكثرهم ورعا.

ثم أردفتُ قائلة بنبوة يقين مطلق:

- ولولا الترياق الذي أعطانا إياه يا أختي، لكان للجني كلام  
آخر مع حبيبي فريد.

رسمتُ كلماتي علامات الحيرة على محيا زائدة، فقالت باستغراب:

- أيّ ترياق هذا!

أشرتُ إليك برأسي، فأمرتكَ قائلة:

- ثبّ يا صغيري، واجلب قنينة الترياق حتى تعينها خالتك!

أدبرتُ للحظات معدودات، فأقبلتُ ومعك قنينة الترياق، المكون من  
خليط الصمغ وماء الورد، فسلمتها لخالتك، وقرصتُ بقرينا. وما إن فتحتها  
أختي زائدة وتنسمت راحتها، حتى أنشأت تغلقها بسرعة، ونهرتني مهتاجة  
أشد الاهتمام:

- وهل يعقل أنك تسمحين لابنك أن يتجرع هذه القدرة!

فتمتمتُ بخيبة، وقد تفاجأت من ردة فعلها:

- ولم تقولين عنها قدرة يا أختي؟

زعت زايذة مؤكدة، فستنكرة في الآن ذاته:

- لأنها حقاً قدارة. أيعقل أنك تفعلين!

وبصوت مشوب بلهجة عتاب أضافت:

- لا يخلق بك فعل هذا مطلقاً.

أحنيتُ رأسي، وقد أصابني سهام كلماتها في مقتل، فأحبطني إحباطاً، وسحبت مني مشروعية ما أقدمت عليه.

أما هي فبسطت يدها باتجاهك، وسحبتك بهدوء، وهي تنفرس وجهك بحنان ومودة. ثم قالت مخاطبة إياي، وقد بدلت لهجتها الأولى بلهجة أقل حدة:

- ألم تفكروا في زيارة الطبيب؟

تمتمتُ بصوت خافت، وقد تفرقت الدموع في مقلتي:

- حتى لو فكرنا، فكيف عسانا نؤمن مصاريفه؟ إن ما يجنيه

سليم يا أختي يكفيننا فقط لسد الرمق، ودفع الإيجار.

فقال زايذة، وهي ما تزال تنفرس وجهك:

- إن المال لا يهم، فما يهم هو أن يستعيد فريد صحته

وعافيته. غداً صباحاً سنأخذه إلى الطبيب.

- لكنني لا أريد أن أثقل كاهلك يا أختي، فأنت أيضاً لك ظروفك الخاصة بك.

هكذا قلتُ، فأردفت وقد اختلج صوتي وتهدج:

- يكفي إحسانك المتواصل، ومساعدتك التي لم تنقطع يوماً.

غير أنها ردت سريعاً، فأنتهت الحديث قائلةً:

- فريد ابني أيضاً، ومقامه من مقام أطفالي. كما أن وضعنا الآن صار بألف خير والحمد لله، وذلك منذ حصول عبد المجيد على الوظيفة الجديدة وانتقالنا للعيش هنا بمدينة فاس.

ثم سألتني مبدلة مسار الحديث:

- متى جلبتم أغراضكم من بيت حماك؟

- منذ أسبوع. وقد كلّفنا ذلك الدمليج الأخير الذي

بقي بحوزتي.

- وكيف ذلك!

- لقد ذهب سليم في المرّة الأولى لطلب الصفح وجلب

الأغراض، فحصل على الصفح دون الأغراض.

- ؟

- لقد طالبتُهُ والدته بدفع ما أنفقته عليه في العرس.

- لا حول ولا قوة إلا بالله!
- وما كان مني إلا أن منحت زوجي الدمليج، كما أخبرتك،  
وجلبنا الأغراض. ويا ليتنا ما فعلنا ذلك!
- ولم؟
- انظري إلى الدولاب كيف صار حاله! وانظري إلى السرير  
في الخارج كيف أصبح مبرقعا ببقع بول الصغار الذين  
كانوا ينامون عليه! انظري يا أختي! انظري!
- لا حول ولا قوة إلا بالله!
- ...
- على كل حال سيعوضك الله بأحسن منهم يا أختي. لا  
تنزعجي أرجوك!
- ونعم بالله.
- عليّ أن أترك الآن. غداً بحول الله سأعود من أجل  
فريد.

\*\*\*

وفي الصباح قصدنا عيادة طبيب متخصص في طب الأعصاب. وكما  
يقتضي الحال فقد حجزنا موعداً، وطفقنا نرتقب دورنا. وفي غضون ذلك،  
فقد أخذتَ تعالين وجوه الجالسين والجالسات بفضول جلي، ثم همست في  
أذني سائلاً إياي:

- هل أنا وكل هؤلاء يسكننا الجني عينه يا أمي؟  
 باغتني سؤالك، فدنوت منك وقلت لك بصوت أقرب إلى الوشوشة:
- لا أعلم يا بني، لكن الأكيد أن قوة الجن والشياطين  
 لا تضاهي.
- انتشلت أذنك من مرمى في، فرمقتني بنظرات تراوحت بين التساؤل  
 وعدم إدراك ما قلته، فرددت أنا الأخرى بنظرات تفيد العجز  
 والاستسلام. وعدنا للصمت وللانتظار مجدداً.
- فريدا! صاحت الشابة المسؤولة عن استقبال المرضى.  
 فانتصبت واقفاً بكندي شجاع، وقلت:
- حاضر!
- ابتسم كل من كان في القاعة، فتوجهنا بمعية موظفة الاستقبال، شطر  
 مكتب الطبيب. وهناك استقبلنا قائلاً:
- مرحبا بكم جميعاً، أنا الدكتور عادل منون. تفضلوا..  
 تفضلوا بالجلوس!
- كف لحظة عن الكلام، وهو يلقي نظرة خاطفة على الملف الذي  
 كانت قد وضعت مساعده أمامه قبل انصرافها، ثم قال:

- يبدو من خلال الاستمارة أنني أستقبل البطل فريد؟

فنطقت زائدة:

- وأنا خالته.. وهذه أمه.

- تفضلوا أنا تحت أمركم. ممّ يشكو صغيري فريد؟

فقلت خالتك وهي تحيطك بنظرات متلاحقة، وتمسح براحتها رأسك:

- شكراً جزيلاً لك سيدي.. لقد ظهرت على فريد حالة

غريبة مؤخراً. سأترك والدته لتوضح لك الأمر أكثر.

وتحت الطاولة ضغطت على أصابع قدمي، فقلت:

- نعم يا سيدي.. ابني فريد مصاب بمس شيطاني.

تناول الطبيب لحظتها قلما ومذكرة صغيرة، ثم قال:

- وهل بمقدورك يا سيدي أن تصفي حالة الصغير عندما

أصيب بهذا المس الشيطاني؟

فأجبت من فوري:

- طبعاً يا سيدي.

ثم أضفت وقد ارتعشت قرارة نفسي بالغصّات:

- عندما تتمكن منه الجنى اعترته حالة غريبة تضارع لحظة خروج الروح من الجسد، فظل يخور كعجل مذبوح، ويحرك يديه ورجليه بضربات قوية، وقد غاب عن الوعي، وسال لعابه، و...

توقفتُ لحظتها، فطالبني الطبيب، الذي كان منهما في تدوين ملاحظاته، بالاستمرار قائلاً:

- وماذا سيدتي؟

أخفصتُ رأسي، وقلت:

- وتبول في سرواله.

لفظتُ الجملة الأخيرة دفعة واحدة، كمن كان يزرع تحت حمل ثقيل، وتخلص منه. أما الطبيب، فعدل من جلسته وخاطبنا بلهجة رزينة:

- لدي فكرة حول المرض الذي يعاني منه فريد، واسمحوا لي يا جماعة إذ كنت قد أسميته مرضاً بدل مسألة الجن والمس الشيطاني، لكنني لن أجزم إلا بعد إجراء الفحوصات الطبية اللازمة.

فقالت زائدة:

- لك ما تريد يا دكتور، فنحن تحت تصرفك. فقط أريد منك أمراً واحداً لو تكرمت؟
- تفضلي..
- أريدك أن تعتبر فريداً ابناً لك.

ابتسم الطبيب، وقال:

- وهو كذلك بمثابة ابني يا سيدتي. فقط اطمئنوا جميعاً.

ثم أضاف بهدوء تام، منها الجلسة:

- بعد يومين من الآن سيتعين علينا إجراء الفحوصات، والكشوفات الطبية المتعلقة بالتشخيص الدقيق لحالة فريد.

\*\*\*

وفي اليوم الموالي للفحص ظهرت النتائج، فشرع الدكتور منون في بسط الأمور قائلاً:

- لدى فريد ضمور على مستوى جزء صغير من

الدماغ. ومن المرجح أن هذا الضمور هو المسؤول،  
وبشكل كبير، عن مرض الصرع الذي يعاني منه  
فريد.

- وما هو مرض الصرع يا دكتور؟ سألته خالته زائدة.

- مرض الصرع يا سيدتي هو التعرض لنوبات يفصل  
بينها ربح من الزمن. والنوبة عموماً هي اضطراب  
كهربائي يحدث في الدماغ. وتستمر أغلب النوبات  
من بضع ثوان حتى دقيقتين. كما أنها تمتاز بعبء  
مؤشرات وأعراض.

!!! -

- بالنسبة لمؤشرات وأعراض النوبة، فتشمل التحديق  
في الفراغ، وفقدان الوعي أو الإدراك، ووهم سبق  
الرؤية...

تخلّصتُ نسبياً من صدمتي، رغم أنني بقيت مرتبكة، فرميتُ بثقل  
هواجسي في وجه الطبيب قائلة:

- وهل هناك علاج لهذا المرض يا سيدي؟

لم يتفاجأ الطبيب من سؤالِي، فقد كان يتوقعه على ما يبدو.

استدار قليلاً بكرسيه المتحرك ناحيتي، فركز نظراته صوبي، وقال:

- قبل التطرق لمسألة العلاج، هنالك بعض النقاط

وجب توضيحها، وعقد اتفاق بشأنها.

صمت برهة، فتابع بنبرة جادة دون أن يحيد ببصره عني:

- من الواجب تجنب فريد القيام بعدة أمور وأنشطة، قد

تشكل خطراً على حياته، في حال تعرضه لنوبة الصرع.

فقلتُ، وقد خفق قلبي:

- مثل ماذا؟

- مثل الابتعاد عن السباحة، واتقاء ركوب الدراجة

الهوائية، وتجنبيه التواجد لوحده ما أمكنكم ذلك...

أومأتُ برأسي دلالة على فهمي لمقصده.

- أما بخصوص العلاج، فبالرغم من تقدم العلم

وتطوره في مجال الطب، غير أنه لا يوجد

علاج نهائي لمرض الصرع. لكن بحول

الله تعالى سنحاول جميعاً التعاون كفريق،  
للسيطرة على النوبات من جهة، والموازنة بين  
السيطرة عليها وعلى الآثار الجانبية للدواء من  
جهة ثانية.

...

هكذا كانت بداية حكايتك مع مرض الصرع يا بني.

## بداية مؤجلة (لأسباب فنية):

فُتحت باب الطائرة أخيراً فشرع الركاب في النزول تبعاً، ومن نظراتهم اشأبت عرائس الفرح بأعناقها، واستيقظت شغاف القلب لمعانقة نمائل الأحضان الدافئة وروايبها، وانتابت الصدور حالة من الصفاء لم تحس بمثلها منذ أمد طويل.

عند أول درج توقفت فطومة!

أغمضت عينيها.. بسطت ذراعيها.. ومن هواء البلد الحبيب عبّت أنفاسا متلاحقة. قبل أن يحفّزها ابنها فريد بحركة طفيفة من يده على المضي قدماً وفسح المجال أمام البقية للنزول.

قسمات وجههما المشرقة عكست على صورة النهار فرحتهما بالعودة إلى أحضان الوطن.

وعلى وقع الجبور الذي كان ينضح من ثناياهما تبادلوا الحديث قائلين:

- سنزور خالتك زایدة أولاًً وزوجها عبد المجید، ثم فوزي وأسرته.
- أجل كما اتفقنا.

توضيح لابء منه:

مصدر بعض الحكايات التي جاءت على لسان شخصية أحمد الصحراوي (ثلاث حكايات)، وكذلك القصائد التي غناها فوزي، هو التراث والفولكلور الشعبي المغربي.

ومنها ما يجهل مؤلفه وزمن إنشائه. لكن معروف من اهتم بهذا الإرث، وهم كثر، كل في مجاله.

وعلى سبيل المثال لا الحصر، أذكر:

الحسين بن علي بن عبد الله - محمد ولد آسفي - عبد الكبير البهلول ...

فألف تحية وتقدير لكل هذه القامات، والرحمة الواسعة لمن تغمده الله برحمته.

